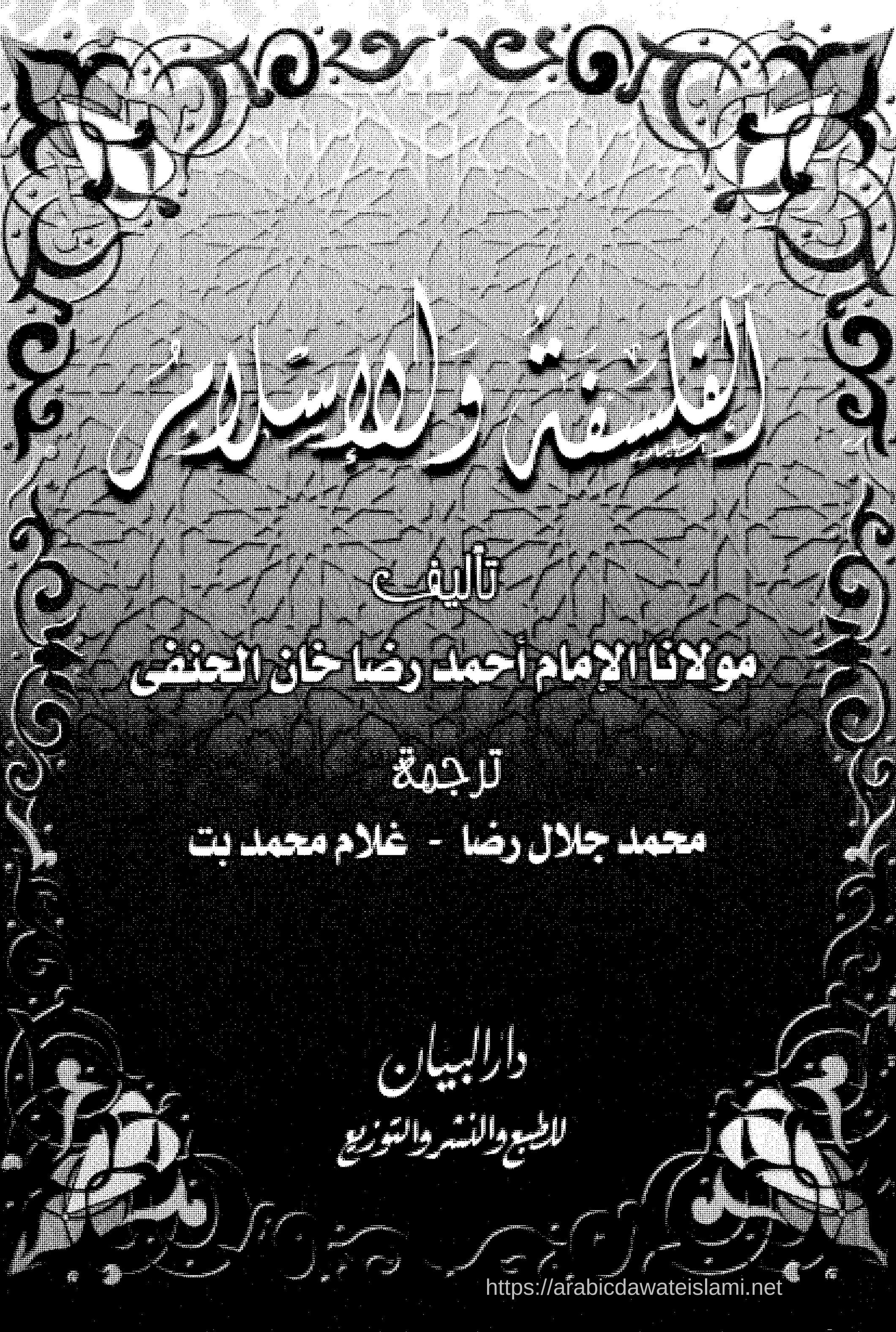

الفلسفة والإسلام
تأليف
مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي
ترجمة
محمد جلال رضا - غلام محمد بت
دار البيان
للطبع والنشر والتوزيع
https://arabicdawateislami.net

إهـــــــداء2005

الأستاذ/ محمد حسين قادري

انجلترا

الفلسفة والإسلام

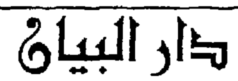
تأليف

مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

١٢٧٢هـ/ ١٣٤٠هـ ـ ١٨٥٦م/١٩٢١م

ترجمه من الأردية

محمد جلال رضا غلام محمد بت





للطباعة
والنشر
والتوزيع

٤ عمارات الجبل الأخضر

بجوار نادى السكة الحديد

ووزارة المالية الجديدة

مدينة نصر

تليفاكس: ٤٨٢٢٤٨٧

ت- ٤٨٣٤٣٢٧

رقم الإيداع

٢٠٠٢/١٤٣٧٨

الترقيم الدولى

I.S.B.N.977-335-093-2

مقامع الحديد

على خد المنطق الجديد

المعروف بـ

الفلسفة والإسلام



الفلسفة والإسلام

تأليف

مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

١٢٧٢هـ/ ١٣٤٠هـ ١٨٥٦/١٩٢١م

ترجمه من الأردية

محمد جلال رضا • غلام محمد بت

قسم التفسير
كلية أصول الدين
جامعة الأزهر الشريف
القاهرة - مصر

قسم التفسير
كلية أصول الدين
جامعة الأزهر الشريف
القاهرة - مصر



اسم الكتاب: مقامع الحديد على خد المنطق الجديد

المعروف بـ: الفلسفة والإسلام

تأليف: مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

ترجمة: محمد جلال رضا

ناشر: المكتبة القادرية ٢٩ شارع والنط، لانكاشير، بولطن- بريطانيا-

الطبعة الأولى: جمادى الأولى ١٤٢٣هـ / أغسطس ٢٠٠٢م-

المطبع: دار البيان

تعداد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

تصحيح الأخطاء المطبعية: محمد أفتاب عالم



شكر واجب

طبع هذا الكتاب على نفقة الحاج الأخ/

حسن صالح بتيل وقد عاوننا في ذلك بمجهودات

مشكورة كل من الحافظ والقارىء فضيلة الشيخ/

محمد مقصود المصباحي الخطيب والإمام بجامع

الغوثية يوزبري، بولطن - بريطانيا

وفضيلة الشيخ العلامة محمد إقبال المصباحي خطيب

وإمام بجامع نور الإسلام، بولطن - بريطانيا

ونتضرع إلى المولى الكريم أن يجعل هذه المساهمة

السخية منهم في ميزان حسناتهم يوم لا ينفع

مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب

سليم.



إهداء

إلى روح الإمام العارف بالله أستاذ المتكلمين وخاتم المحققين جامع المعقول، والمنقول، بحر الشريعة والطريقة، العلام الشيخ/ محمد نقي علي خان (والد المؤلف العلامة - رحمهما الله تعالى رحمة واسعة) الذي أثرى المكتبات الإسلامية بعشرات المؤلفات الممتعة ونفض من وجه العقيدة الإسلامية الغبار المثار من بعض الأقلام الزائغة، ووقف حياته في الدفاع عن الإسلام والمسلمين والرد علي البدع والمنكرات والزيغ والانحراف، وخرج لصالح الإسلام أعظم مدافع عن العقيدة الإسلامية في شبه القارة الهندية أعني ابنه البار الشيخ الإمام أحمد رضا خان الحنفي.

فجزاهما الله أعظم الجزاء

محمد جلال رضا



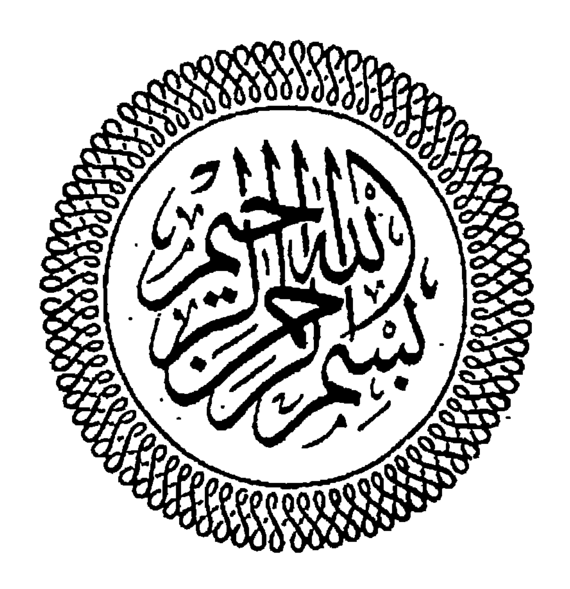
أملُ الآمال
إلى مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

ألا صحبي آنيروا في الظلام	*	فهذا شمس مولانا الإمام
يبدد نورها حُجبَ الدياجي	*	ويهديكم إلى سُبل السلام
ويملأ قلبكم بسنا اليقين	*	وحب المصطفى خير الأنام
ألم تسمع لأصوات تنادي	*	هلموا ههنا حسن المقام
لدى «أحمد رضا» زين الفقيه	*	عظيم الجود والفيض المدام
له صوت وصيت في النوادي	*	وذكر طيب عند الكرام
له حججٌ إذا عجز الفحول	*	وقولٌ قاطعٌ وقت الخصام
أدلته شفاءٌ للنفوس	*	وآمن الخائفين من الجمام
وبرق فوق رأس المارقين	*	وسيفٌ فوق أعناق اللئام
بريءٌ عن هوى نفس وجاهٍ	*	وعن تاج العلا والاحتشام
عظيمٌ همة فوق الجبال	*	وماضٍ في الإرادة كالحُسام
وسباقٌ إلى نيل المعالي	*	بلا ردٍ ومنع وازدحام
قوى العزم في حل الصعاب	*	ونفاذٌ إلى قمم المرام
ومستوح من القرآن رشداً	*	وهدى المصطفى خير الأنام
فلا يتجاوز المرمى جُزافاً	*	إذا هدفاً رماه بالسهام
وشاهدة على ما أدعيه	*	رجال، صفوة البلد الحرام
سقى المولى ثراه كل آن	*	إلى يوم القيامة بالدوام
وأنزل فوق مدفنه الشريف	*	شآبيبا كأمطار الغمام
أجب هذا دعاءً من أثيم	*	له أملٌ إلى حسن الختام

من شعر محمد جلال رضا

من أبناء الأزهر الشريف




بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

لفضيلة الأستاذ الدكتور محيى الدين الصافي
الأستاذ المتفرغ بقسم العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة
وعميد الكلية ورئيس القسم سابقًا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد، فقد قرأت كتاب «الفلسفة والإسلام»، «مقامع الحديد على خد المنطق الجديد» تأليف مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي المتوفى سنة ١٣٤٠هـ الموافق ١٩٢١م، وقد ألفه ليرد به على كتاب «المنطق الجديد لناطق ألنا له الحديد» وقد نسبه لزيد الفلسفي، وقد ضمنه ثمانية أقوال، أي ثمان مسائل من مسائل الفلسفة، وقد رد على كل مسألة باستفاضة، وكفر زيدًا الفلسفي في الأربعة أقوال الأول، والقول الأول منها يتناول نظرية الصدور، أو ما يسميه الفلاسفة بنظرية العقول العشرة، المتعلق كل منها بكوكب من الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس، وآخرها العقل الفعال، وهو عقل فلك القمر، الذي فاضت عنه النفس الكلية، وعنها فاض العالم الأرضي بما فيه من جماد ونبات وحيوان، وهذه النظرية اخترعها الفلاسفة ليبرروا بها قولهم بقدم العالم، وأساس هذه النظرية اعتقادهم بأن الواحد البسيط من كل وجه لا يصدر عنه إلا واحد، ثم قالوا «والله تعالى واحد بسيط، فلا يصدر عنه إلا واحد، وهكذا تفتق ذهنهم عن هذه الخزعبلات، فقالوا، إن الله تعالى فكر في نفسه ففاض عنه عقل أول، وهذا العقل الأول له جهتان يفكر فيهما، ففكر أولا في مبدئه وهو الله ففاض عنه عقل ثان وفكر في نفسه ففاض عنه نفس وجرم الفلك الأقصى، وهكذا عن العقل الثاني فاض العقل الثالث، ونفس وجرم الفلك الثاني وهكذا توالت الفيوضات إلى أن

وصلت إلى العقل العاشر وهو عقل فلك القمر وهو العقل الفعال عندهم وعنه فاضت النفس الكلية، وعنها فاض العالم الأرضي بما فيه، ولذا قال الفلاسفة بقدم العقول العشرة، وقالوا بقدم ما يسمى عندهم بالهيولى والصورة، وقالوا بقدم العناصر أربعة التي تتكون منها الموجودات الجزئية في الكون، وهذه العناصر هي الماء والتراب والهواء والنار، فباجتماعها تتكون الحوادث الجزئية، فالمادة قديمة، والصور والأعراض حادثة، وبافتراق هذه العناصر تفنى الحوادث، وتجدد في جزئيات أخرى وهكذا إلى غير ذلك من حماقاتهم وأقوالهم الباطلة، وقد أفاض الشيخ أحمد رضا خان في الرد على من يقول: بقدم العالم أو بقدم شيء منه، كالعناصر الأربعة، والهيولى والصورة كما يدعون، وساق آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين أن العالم بجميع ما فيه حادث ومخلوق، وكفر كل من يقول بنظرية العقول العشرة، أو بقدم شيء من العالم، وأنا أوافقه في تكفير كل من يقول بقدم العالم أو بقدم شيء منه، وكذلك القول بنظرية العقول الباطلة، وقد سبقنا في هذا التكفير الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فقد كفرهم في كتابه «تهافت الفلاسفة» لقولهم بقدم العالم ولقولهم بعدم علم الله تعالى للجزئيات، ولقولهم بعدم حشر الأجساد، وقال عن نظرية العقول إنها باطلة، ولو حكاها الإنسان عن منام رآه لاستدل بها على سوء مزاجه، وكنت أود أن يتضمن الكتاب بعض هذه الأدلة التي رد بها الغزالي على الفلاسفة لقولهم بقدم العالم، وأنا مع الشيخ أحمد رضا خان في نفيه أن تكون الملائكة هي العقول المجردة؛ لأن العقول عندهم مجردة عن المادة وعن جميع شوائب النقص والقبح والجهل كما يدعون: وهي لا يعزب عن علمها ذرة من ذرات كل موجود في العالم كلياته وجزئياته، ومادياته ومجرداته، وأما الملائكة فهي عند أهل السنة أجسام نورانية خلقهم الله تعالى من العدم، وخلقهم لعبادته، وهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتناسلون بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» وهم لا يعلمون كل شيء كما يدعي الفلاسفة في العقول، وقد ورد في تفسير قوله تعالى من سورة الأعراف

: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين﴾ أنه لما قرأها جبريل على النبي ﷺ سأله النبي ﷺ ما هذا يا أخي يا جبريل: قال: لا أ دري حتى أسأل رب العزة سبحانه وتعالى، فغاب وجاء فقال: يا محمد إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وأن تصل من قطعك، وأن تعطي من حرمك» فهذا يدل على أن الملائكة لا تعرف إلا ما يعرفهم الله تعالى، وأنا لست مع الشيخ في ذم الفلسفة ككل لأن الفلسفة فيها حق وباطل، فحقها حق، وباطلها باطل، فحين تستدل على وجود الله ووحدانيته فهي حق وعندما تقول بقدم العالم وعدم حشر الأجساد فهي باطل والكندي فيلسوف استخدم الفلسفة في استدلاله بالأدلة اليقينية على حدوث العالم، وقال إن الله تعالى أحدثه من كتم العدم المحض، فلا هيولى ولا صورة كما يدعي الفلاسفة؛ لأنه تعالى يقول للشيء كن فيكون، فقدرته تامة لا يعجزها شيء ومن تعريفات الفلسفة أنها محبة الحكمة، فكيف تكون محبة الحكمة مذمومة، وقد قال تعالى : ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا ألو الألباب﴾ على خلاف في تفسير الحكمة.

وقد ذكر ابن رشد في كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال »أن الغرض من هذا القول أن نفحص على جهة النظر الشرعي هل النظر في الفلسفة، وعلوم المنطق مباح بالشرع أم محظور أم مأمور به إما على جهة الندب، وإما على جهة الوجوب فنقول: إن كان فعل الفلسفة ليس شيئًا أكثر من النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم، وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات وحث على ذلك: فبين أن ما يدل عليه هذا الاسم إما واجب بالشرع وإما مندوب إليه، فأما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله تعالى : ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾، وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي، أو

العقلي والشرعي معًا ومثل قوله تعالى : ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ وهذا نص بالحث على النظر في جميع الموجودات» هذا ما كتبه ابن رشد في مقدمة كتابه «فصل المقال» وهو الحق وعلى هذا فذم الشيخ أحمد رضا خان للمنطق ليس بصحيح؛ لأن الغزالي قال: من لا معرفة له بالمنطق فلا يوثق بعلمه.

وقد كتب الشيخ الأخضري في منظومته في المنطق.وهي متن السلم الخلاف في ذلك والرأى الحق فقال: والخلف في جواز الاشتغال به على ثلاثة أقوال، فابن الصلاح والنووي حرما، وقال قوم ينبغي أن يعلما، والقولة المشهورة الصحيحة جوازه لسالم القريحة، ممارس السنة والكتاب ليهتدي به إلى الصواب أما قول الفلاسفة بقدم العالم وعدم الله تعالى بالجزئيات وعدم حشر الأجساد، فإنهم في أقوالهم هذه قد خالفوا المنطق، وقلدوا أرسطو في أقوالهم هذه، ولذلك كفرهم الغزالي من غير تردد، أما مسألة التكفير بالأقوال التي تصدر من الناس فقد فصلها الشيخ تفصيلا بينا وقد قال : إن فقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة كفروا من قال بقدم العالم اقتداءً بالغزالي؛ ولأن الفلاسفة في قولهم بقدم العالم، يكذبون الله تعالى في قوله «خلق السموات والأرض» والخلق هو الإنشاء من العدم، فمن يكذب الله تعالى فهو كافر.

ولكن ينبغي أن يتريث الإنسان في تكفير المسلم، وكما قال الغزالي في «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» أن الإنسان إذا وجد في قول أخيه تسعة وتسعين في المائة كفر، وواحد مع الإسلام والإيمان فيحمل قوله على الإسلام، ويترك التسعة والتسعين المكفرة، وقد أشار إلى هذا الشيخ في خاتمة كتابه، هذا لأن التكفير أمر عظيم؛ لقول الرسول ﷺ: إذا قال المسلم لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما»، وقد فصل الإمام عضد الدين الإيجي القول في هذا في كتابه «المواقف»، وسعد الدين التفتازاني في كتابه «المقاصد». والشيخ عمر النسفي في كتابه «العقائد النسفية».

وقد خرج الإمام أبو حامد الغزالي جميع الأقيسة المنطقية سواء أكانت حملية أم شرطية من القرآن الكريم في كتابه «معيار العلم» وهو كتاب في المنطق ، فمن الأقيسة الحملية خرج الشكل الأول من قوله تعالى على لسان إبراهيم: أنا أحيى وأميت وكل من يحيى ويميت إله ∴ أنا إله.

ومن القياس الشرطي الاستدلال علي الوحدانية لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا لكنهما لم تفسدا بالمشاهدة إذن ليست هناك آلهة غير الله.

والله تعالى الموفق للحق والهادي إلى سواء السبيل.

لفضيلة الأستاذ الدكتور محيى الدين الصافي

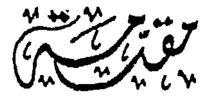
الأستاذ المتفرغ بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة

وعميد الكلية ورئيس القسم سابقًا

القاهرة يوم الاثنين الثالث من جمادى الأخرى لسنة ثلاث وعشرين وأربع مائة وألف للهجرة النبوية الشريفة الموافق الثاني عشر من أغسطس لعام اثنين وألفين للميلاد





الحمـد لله الذى أكرم الإنسـان بالعقل، ومـيزه به على كـثير ممن خـلق، وجعل العقل مناط الأحكام الشرعية، وحـرم كل ما يؤدى إلى إتلافه أو تعطيله، وأبعد كل العـوائق والموانع عن طريقـه، وحض على اسـتعـمـال العقـل والفكر بكل لون من ألوان الحض والإغراء، بل جـعل من لا يستعـمل العقل أضل وأهون من الحـيوان، والصـلاة والسلام على من أكـرمه بـتلك المعجـزة العقلـية الخـالدة معـجزة القـرآن الكريم، وعلى آله وصحبه العقلاء الفطناء وعلى علماء أمته أجمعين، أما بعد.

فلا شك أن الإسلام قد قدم للـعالم عبر التاريخ شخصيات خـلاقة فى مختلف المجالات العلمية، النظرية، والتجريبيـة، وعقولاً جبارة قادرة على الإحاطة بمختلف الثقافات والتأثير فيها، وصفحات التاريخ أعدل شاهد عليه.

وها نحن نعرف للعالم العربى علَمًا من أعلام الإسلام وعبقريًا من عباقرته كان له تأثيرٌ كبيـرٌ فى الحياة العقلية ونفوذ واسع فى الحِركـة الفلسفية فى الهند، ألا وهو الشيخ الإمام أحمد رضا خان الحنفى وهو جدير بهذا التعريف لاعتبارات شتى.

غـير أن تعـريف الإمـام يحتـاج إلى دفتـر طويل أو مـوسوعـة ضـخمـة، لما فى شخصـيته من تنوع واستيعـاب لكل جانب من جوانب الثقافـة الإسلامة، وإلمام تام فى جميع العلوم العقلية والنقلية.

وقـد رأيت أن أوقع تعريف للشـيخ الإمـام لغيـر الناطقـين بالأردية إنما يتم من خلال نقل تراثه العلمى الهائل الضخم، وترجمة مؤلفاته القيمة الفريدة، الدالة على جلالة شـأن المؤلف وعلو كعـبه فى العلوم والمعـارف، إذ به معـرفة الإمـام بالإمام مباشرة بلا وساطة.

وانطلاقًا من هذه الفـكرة الطيبة، قـام الطلبة الهنود الدارسـون بالأزهر الشريف بتـرجمـة ثلاث رسائل للإمـام إلى اللغة العـربيـة فى العام الماضى، وطبـعت باسم «القاديانية». من القاهرة، وها نـحن نقوم بإبراز الناحية العقلية فى شخـصية الإمام،

واستقلاله الفكرى والعقلى فى هذا العام رغم مزاحمة الشواغل والواجبات ـ رغبة فيما عند الله ـ عزّ وجلّ ـ وذلك من خلال ترجمة مؤلف قيم يسمى بـ «مقامع الحديد على خد المنطق الجديد» من اللغة الأردية إلى اللغة العربية العريقة. وقد ناقش المؤلف العلام ـ رحمه الله تعالى ـ فيها بعض المعضلات الفكرية التى بلبلت عقول البعض، وقد سمينا هذه الترجمة المتواضعة «الفلسفة والإسلام».

ولا محيد عن ترجمة هذا التراث العلمى النقى الذى خلفته شخصية الإمام العبقرية الخلاقة، لما للتواصل الثقافى والتبادل العلمى بين الشعوب المختلفة العقليات من أهمية لدى أولى الألباب والنهى، وبصفة خاصة بين الشعوب الإسلامية، وبهذا يقوم دليل بين على سماحة الإسلام لاحتضان مختلف الثقافات والعقليات من العالم أجمع، وصلاحيته للتأثير فيها بالتوجيه والتصحيح.

وها نحن نكتب فى التعريف بهذه الشخصية الموسوعية الفذة لتجلية بعض الجوانب العقلية الممتعة. وإبراز آراءه الكلامية وابتكاراته الفكرية الرائعة.

ولد هذا المولود المبارك ببلدة «بريلى»، بالهند، يوم الاثنين العاشر من شوال المعظم سنة ١٢٧٢ من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، الموافق الرابع عشر من شهر يونيو سنة ١٨٥٦ الميلادية.

الخلفية الأسرية: لقد كانت أسرته أسرة علمية عريقة ذات مكانة عالية منذ قديم. ومما لا شك فيه أن البيئة الأسرية لها أثر فعال فى تكوين شخصية الطفل الذى يعيش فيها ويستنشق من جوها العاطر بالأخلاق الكريمة والعادات الحسنة فلا غرو بعد هذا أن يُصْبِحَ شيخنا عبقريا من عباقرة الإسلام.

لقد كان أبوه الشيخ نقى على خان (١٢٤٦هـ / ١٢٩٧هـ) من مشاهير العلماء فى ذلك العصر، كما كان متكلمًا مفلقًا وعالما ربّانيا أطبقت شهرته أنحاء الهند، وقد أثرى المكتبات الإسلامية بتأليفات ممتعة ومؤلفات قيمة وهنا نذكر بعض مؤلفات الشيخ على سبيل المثال:

١ـ الكلام الأوضح فى تفسير المشرح.

٢ـ سرور القلوب فى ذكر المحبوب.

٣ـ جواهر البيان فى أسرار الأركان.

٤ـ أصول الرشاد لقمع مبانى الفساد.

٥ـ هداية البرية إلى الشريعة الأحمدية.

٦ـ الرواية الروية فى الأخلاق النبوية.

٧ـ لمعة النبراس فى آداب الأكل واللباس.

٨ـ أحسن الوعاء لآداب الدعاء.

٩ـ إذاقة الآثام لمانعى عمل المولد والقيام.

١٠ـ الكواكب الزهراء فى فضائل العلم وآداب العلماء.

١١ـ خير المخاطبة فى المحاسبة والمراقبة.

١٢ـ هداية المشتاق إلى سيد الأنفس والآفاق.

١٣ـ أجمل الفكر فى مباحث الذكر.

١٤ـ عين المشاهدة لحسن المجاهدة.

١٥ـ نهاية السعادة فى تحقيق الهمة والإرادة.

١٦ـ أقوى الذريعة إلى تحقيق الطريق والشريعة.

وغيرها من المؤلفات الغالية.

وتوفى الشيخ محمد نقى على خان فى ليلة الجمعة الثلاثين من شهر ذى القعدة عام ١٢٩٧ للهجرة الموافق ١٨٨١ للميلاد.

وقد فتح الشيخ أحمد رضا خان عينيه فى هذا الجو العلمى الطاهر، ونشأ فى بيت يشبه المكتبة أو الجامعة وبذلك نرى أنه لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره إلا وقد امتلك ناصية البيان وتسلّم مقاليد الفتوى والإرشاد وشرع فى التأليف والتصنيف.

تلقى العلوم الإسلامية والعربية عن والده وعن نخبة ممتازة من العلماء النابغين فى ذلك العصر، ولم يزل يوسع ثقافته ويعمق معرفته حتى أتقن خمسة وخمسين

علمًا وفنًا. ولم يترك علمًا أو فنًا إلا وقد أجاد وأتقن وألف فيه، بل أضفى فيه قواعد وأصولاً من عقليته المتفتحة المستقلة.

وقد ابتكر عشر قواعد لمعرفة جهة القبلة من أى قطر من أقطار الأرض، وقال: قواعدنا فى غاية الصحة حتى لو أزيلت الحجب لتجلت الكعبة بمرأى من العيون، إذا روعيت هذه الأصول مراعاة دقيقة. ونقل هذه القواعد تلميذه الوفى العلامة ظفر الدين أحمد البيهارى فى كتابه «توضيح التوقيت». فإن دل هذا على شيء فيدل على عقليته الخلاقة وتفكيره الحر المبدع.

وفوض إليه أبوه مسئولية الإفتاء والإرشاد لما رأى فيه من الذكاء المفرط والذاكرة المدهشة وإصابة الرأى غير أن الشيخ الإمام لم يزل يعرض فتاويه على أبيه للتصويب والاستزادة من خبراته الفقهية ومعارفه الشرعية حتى توفاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

كان الشيخ أحمد رضا خان من أهل السنة والجماعة حنفى المذهب قادرى الطريقة بايع على يد الشيخ آل رسول المارهروى سنة ١٢٩٥هـ ونال منه الإجازة والخلافة فى السلاسل كلها كما نال الإجازة فى علوم الحديث والفقه وغيرها وكان شيخه من أشهر تلامذة فضيلة الشيخ العلامة عبد العزيز المحدث الدهولى صاحب كتاب «تحفة الاثنى عشرية» وغيرها من التصانيف العلية وكان الشيخ أحمد رضا خان شديد الاعتصام بالكتاب والسنة وسلف الأمة، راسخ الاتباع للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وللصحابة والأئمة قوى الحب بالغ الإجلال لهم، حتى أن أدنى إساءة لأحدهم كانت تثير غيرته الدينية فما كان ليداهن فى الدين ويصالح مع المبطلين إلا أن يرتدعوا عن الأباطيل ويرجعوا إلى الحق المبين.

جهاده بالقلم: لقد رد على النصارى، والهندوس، والرافضة، والقاديانية، والديوبندية، والنياشرة، والمتصوفة المغالية وغيرها.

وكلما ظهرت بدعة قام بالرد عليها حتى أن كثيرًا من المبطلين كان يمتنع من إعلان بدعته زمنًا طويلا مخافة من قلم الإمام أحمد رضا خان الحنفى، كما كان

شديد الإنكار على كل حرام ومنكر يظهر فى المجتمع الإسلامى، وتصانيفه تزخر وتتدفق بالرد على البدع والمنكرات. التى راجت فى عصره أو ظهرت قبل زمانه.

ذكر بعض مصنفاته: بلغت مؤلفاته ألفًا ما بين صغير كبير، وذلك مع كونه صاحب اليد الطولى والنفس الطويل فى الإيجاز وجمع المعانى الكثيرة فى المبانى القليلة.

وفى مقدمتها:

١ـ العطايا النبوية فى الفتاوى الرضوية، فى اثنى عشر مجلداً كل مجلد يتجاوز خمس مائة صفحة كبيرة ويقارب ألف صفحة.

٢ـ جد الممتار على رد المحتار لابن عابدين الشامى، فى خمس مجلدات.

٣ـ الصمصام على مشكك فى آية علوم الأرحام (فى الرد على النصارى).

٤ـ كيفر كردار آريه (فى الرد على الهنادك).

٥ـ السوء و العقاب على المسيح الكذاب.

٦ـ الجراز الديانى على المرتد القاديانى.

٧ـ المبين ختم النبيين[١].

٨ـ جزى الله عدوه بإباءه ختم النبوة. (فى الرد على منكرى ختم النبوة)[٢].

٩ـ مقامع الحديد على خد المنطق الجديد[٣].

١٠ـ الكلمة الملهمة، فى الرد على الفلاسفة.

١١ـ الدولة المكية بالمادة الغيبية.

١٢ـ الفيوضات الملكية لمحب الدولة المكية.

١٣ـ الأدلة الطاعنة فى آذان الملاعنة.

---

(١) وقد ترجمت هذه الرسائل الثلاثة من الأردية إلى اللغة العربية بجهود من الطلبة الهنود النشطاء حفظهم الله تعالى وطبعت من القاهرة، مصر.

(٢) وقد ترجم هذه الرسالة القيمة إلى اللغة العربية كل من الأخ الفاضل منظر الإسلام ونعمان الأعظمي حالاً وطبع باسم «محمد خاتم النبيين»، وصدر في دار البيان، القاهرة، مصر.

(٣) الرسالة التي بين أيديكم الآن.

١٤ـ رد الرفضة (فى الرد على الشيعة).
١٥ـ إكمال الطامة على شرك سوى بالأمور العامة.
١٦ـ الزبدة الزكية فى تحريم سجود التحية. «قدم فيها أربعين حديثًا ومائة وخمسين نصًا من كتب الفقه على حرمة سجود التعظيم لأحد من الخلق».
١٧ـ جمل النور فى نهى النساء عن القبور.
١٨ـ مروج النجا لخروج النساء.
١٩ـ جلى الصوت لنهى الدعوة أمام الموت.
٢٠ـ منير العين فى تقبيل الإبهامين.
٢١ـ اعتقاد الأحباب فى الجميل المصطفى والآل والأصحاب.
٢٢ـ حياة الموات فى بيان سماع الأموات.
٢٣ـ كنز الإيمان فى ترجمة القرآن.
٢٤ـ أنوار المنان فى توحيد القرآن.
٢٥ـ المقالة المسفرة عن أحكام البدعة المكفرة.
٢٦ـ سبحان السبوح عن عيب كذب مقبوح.
٢٧ـ فتاوى الحرمين برجف ندوة المين.
٢٨ـ بارقة تلوح من حقيقة الروح.
٢٩ـ تجلى اليقين بأن نبينا سيد المرسلين.
٣٠ـ صفائح اللجين بكون التصافح بكفى اليدين.
٣١ـ المعتمد المستند بناء نجاة الأبد.
٣٢ـ النيرة الوضية فى شرح الجوهرة المضيئة.
٣٣ـ الأمن والعلى لناعتى المصطفى بدافع البلاء.
٣٤ـ أنوار الانتباه فى نداء يا رسول الله.
٣٥ـ الشرعة البهية فى تحديد الوصية.
٣٦ـ تنوير القنديل فى أوصاف المنديل.

٣٧ـ لمع الأحكام أن لا وضوء من الزكام.
٣٨ـ الأحكام والعلل فى أشكال الاحتلام والبلل.
٣٩ـ نبه القوم أن الوضوء من أى نوم.
٤٠ـ بركات السماء فى حكم إسراف الماء.
٤١ـ صيقل الرين عن أحكام مجاورة الحرمين.
٤٢ـ أجلى الإعلام أن الفتوى مطلقًا على قول الإمام.
٤٣ـ الظفر لقول زفر.
٤٤ـ الطلبة البديعة فى قول صدر الشريعة.
٤٥ـ الكشف شافيًا حكم فونوغرافيا.
٤٦ـ عطايا القدير فى حكم التصوير.
٤٧ـ أطائب الصيب على أرض الطيب.
٤٨ـ حسام الحرمين على منحر الكفر والمين.
٤٩ـ الدلائل القاهرة على الكفرة النياشرة.
وغيرها من المؤلفات الكثيرة النافعة.

وله حواش جليلة وتعليقات أنيقة على كتب التفسير والحديث والفقه والسيرة والكلام وغيرها من العلوم والفنون وتمتاز هوامشه بأنها فيض خاطره وما كان يفرغ لكتابتها كغيره من المحشيين الذين إذا أرادوا كتابة حاشية على كتاب جمعوا حولهم ذخائر من كتب وشروح وحواش وتعلقيات وأخذوا منها ونقلوا عنها ما أحبوا حتى تتكون حاشية ضخمة وهذا أيضًا عمل نافع له قدره غير أن العلامة أحمد رضا خان لم يكن كذلك، بل كان إذا طالع كتابًا ورأى مبحثًا عويصا أو زللا من صاحب الكتاب أو مسألة تحتاج إلى زيادة الكشف والإيضاح أو موضحًا اختلفت فيه الأفكار والأقلام كتب هناك جملا يسيرة تنحل بها العقد ويندفع الزلل وتنكشف العلل ويتجلى الحق الأبلج.

إن الشيخ الإمام عايش القرآن والسنة بفكره وروحه وخالطهما بعقله وشعوره، وترجمهما بعمله وفعله ترجمة صادقة وصبغ قلبه وقالبه روحه وجسده بالصبغة الربانية حتى امتزجت معانى القرآن والسنة بلحمه ودمه. كما أحاط بكل ما كان يموج به ذلك العصر من مخاطر وتهديدات تحيط بالإسلام والمسلمين وأدرك تلك الدسائس والمخططات التى كانت تنسج حول محو الهوية الإسلامية وإبعاد المسلمين عن القرآن وصاحب القرآن وطالع المجتمع الهندى بترو تام كما يطالع الطبيب الحاذق المريض لمعالجته، ورحب جميع التحديات بكل شجاعة وبسالة؛ فحرص حرصًا شديدًا ناشئًا من الإيمان والعقيدة ونشط للحفاظ على الميزة الإسلامية على نقاءها وصفاءها من المؤثرات الأجنبية والهجمات الخارجية. فلم يكن مؤمن كهذا ليخذل الملامح الإسلامية لتذوب فى بوتقة تلك الموجات العارمة من مئات التقاليد والعادات الخرافية فى بلد يزخر بالأديان والمعتقدات ويموج بالخرافات والأباطيل.

وقد عرض الإمام كل نشاط من نشاطات المجتمع وكل حركة من حركاته على محك القرآن والسنة، فما كانت منها صالحة نافعة ومنسجمة مع طبيعة القرآن والسنة أقرها وما كانت سيئة ضارة مضادة لروح الحنيفية السمحاء بذل كل ما فى وسعه لإزالتها وتطهير المجتمع الإسلامى منها ومن أضرارها، وحذر المسلمين من عواقبها الوخيمة فى الدنيا والآخرة بأسلوب حكيم ينبض بروح العقيدة الصادقة ونور الإيمان الوضاء، كما يلاحظ ذلك بوضوح من أسماء الكتب التى عرضنا بعضا منها فى السطور السابقة وقد رأيت أنها أحاطت كل جانب من جوانب الشريعة والعقيدة والسلوك.

وقد آن الأوان أن نقدم بعض الشواهد والأمثلة على ما قلنا من خلال مؤلفات الإمام؛ لنتأكد من عظمة هذا المجاهد الباسل الجليل.

تطهير المجتمع من البدعة الاعتقادية كان قد نبت فى المجتمع الهندى

كالطفيليات أناس تلاعبوا بأحكام الشريعة الإسلامية واستهانوا بعظمتها وانحرفوا عن الجادة وحادوا عن الصراط المستقيم، ففرقوا بين الشريعة والطريقة وفضلوا الطريقة على الشريعة، فوجه إلى شيخنا الإمام استفتاء فى هذه القضية حيث كان مرجعًا موثوقًا به فى أمور الدين.

وكان هؤلاء المنحرفون قد استندوا إلى بعض الشبهات التى زينها الشيطان لهم فقالوا: إنما الشريعة عبارة عن بعض الفرائض، والواجبات وشىء من السنن والمستحبات والحلال والحرام، أمثال الوضوء والصلاة وغيرها، أما الطريقة فعبارة عن الوصول إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وفيها تنكشف حقائق العبادات وفيها تتجلى أسرار الصلاة والصيام وخفاياها وقالوا إن الطريقة بحر لا ساحل له والشريعة بالنسبة إليها قطرة صغيرة، والطريقة هى الوراثة الحقيقية والنيابة الكاملة للأنبياء وهى التى بعث من أجلها الأنبياء والرسل، وعلماء الظواهر هم أهل القشور لا يصلحون بحال من الأحوال لعظمة الخلافة النبوية.

كما لا يسوغ إطلاق «العلماء الربانيين» عليهم بخلاف أصحاب الطرق ويجب على الناس أن يحذروا من خداع هؤلاء العلماء المزعومين فإنهم شياطين بل حجب واستتار دون الوصول إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ.

هذه هى الشبهات التى استند إليها بعض من فضل الطريقة على الشريعة وسنرى فى السطور التالية. فوران غيرة الشيخ الدينية وغليان حماسته الإيمانية على هذه البدعة الفكرية والانحراف اعقدى الخطير، مع ملاحظة أنه أحد مشائخ الطريقة القادرية فى الهند، ونجد أن الشيخ الإمام لم يكن ليصغى إلى هذه الشطحات المنفلتة التى تصادم مع روح الشريعة الإسلامية وطبيعة الحنيفية السمحاء. وأنه كان شديد التمسك والاعتصام بأدلة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. قال الشيخ ردًا عليهم:

إن وصفهم الشريعة المطهرة بأنها عبارة عن بعض الأحكام مثل الفرض والواجب والحلال والحرام، ناشىء من الجهل والعمى ودال على الغى والهوى، وهو إلحاد صريح وضلال مبين.

إنما الشريعة عبارة عن مجموعة كاملة من الأحكام الإلهية التى تشمل الجسم والروح، القلب والقالب، والظاهر والباطن، وهو اسم لجملة العلوم الربانية والمعارف اللامتناهية والطريقة والمعرفة جزء من تلك المنظومة المتكاملة الشاملة، ومن هنا أجمع العلماء قاطبة على حتمية العرض لجميع معارف الأوليا والصالحين ومكاشفاتهم وحقائقهم على الشريعة الإسلامية المطهرة، فما وافقت منها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فهى مقبولة وإلا مرفوضة جملة وتفصيلا.

وعلى هذا فالشريعة هى الأصل وهى المحك والميزان بها العبرة وعليها الاعتماد، والشريعة لغة تطلق على الطريق وشريعة محمد ﷺ تعنى طريقة المصطفى عليه التحية والثناء، ولا شك أنها عامة ومطلقة فلا يعقل قصرها على بعض الأحكام الخاصة بالأجسام وهذه هى الطريقة التى يجب على المسلم أن يسأل المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ السلوك والاستقامة والثبات عليها فى الصلوات الخمس، ألا ترى أن دعاء، إهدنا الصراط المستقيم يتكرر فى الصلوات كلها.

ويقول المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ إن ربى على صراط مستقيم، وهذه هى الطريقة التى لو حاد عنها أحد، ضل وغوى، قال المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

انظر كيف صرح القرآن العظيم بوضوح أن الشريعة هى وحدها الكفيلة بالإيصال إلى المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ وكل طريق سواها فمبعد عن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ وقولهم إن الطريقة عبارة عن الإيصال أو الوصول إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يعدو أن يكون جنونًا أو جهالة، إذ لا يخفى على عامة الناس فضلا عن غيرهم أن الطريقة والطريق تعنى السبيل الذى يؤدى إلى غيره وليس معناه الوصول أو البلوغ فى أية لغة.

فالطريقة لو كانت غير الشريعة فلن تكون مؤدية إلى المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بل تؤدى إلى الشيطان الرجيم، ولا تصل إلى الجنة بل توصل إلى النار، كما شهد بذلك القرآن العظيم حيث رفض كل السبل والطرق غير الشريعة الإسلامية.

ومن هنا يلزم أن تكون الطريقة هى الشريعة فالطريقة عبارة عن جزء هام من الشريعة الغراء لا يقبل الانفكاك عنها فى حال من الأحوال ومن فصَّل الطريقة عن الشريعة فقد فصلها وقطعها عن طريق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وربطها بطرق الشياطين. إن الطريقة الحقة ليست من طرق الشياطين فى شىء وبالتالى هى طريق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولا يغيبن عنك أن كل ما ينكشف فى الطريقة على العبد إنما ينكشف ببركة الشريعة واتباعها، ألا ترى أن الرهبان، والمتبتلين والزهاد من الكفار والمشركين قد تنكشف عليهم أشياء كثيرة غير أن ذلك لا ينفعهم بشىء فى الآخرة بل هو الذى سيوصلهم إلى النار ويقذفهم فى سقر.

عجبًا لمن قال إن الشريعة قطرة والطريقة بحر، وهل يصدر هذا إلا من مجنون أو معتوه سمع عن سعة البحر وعمقه ولم يدر المسكين من أين جاءت هذه السعة فى البحر، ولا يخفى على العاقل أن سعة البحر بسعة المنبع وغزارته فلو لم تكن السعة فى المنبع والصمدر لما كانت تلك السعة فى البحر فالشريعة بمثابة المنبع أو العين والطريقة كبحر يستمد بقاءه منه بل هذا المثال أيضًا غير دقيق كما ينبغى؛ لأن البحر قد يستقل عن المنبع والعين فى سقى المزارع عند المرور بها، وقد يستغنى المنتفع به عن المنبع والعين بخلاف منبع الشريعة الغراء فإن البحر المستمد منها لا يستغنى عنها ولو للحظة واحدة.

هذه نبذة يسيرة من تلك الرسالة القيمة التى ألفها المؤلف العلام فى دحض هذه الشبهة واستئصالها وسماها «مقال عرفاء بإعزاز شرع وعلماء».

وبذل الشيخ الإمام مجهودات مشكورة فى محو تلك البدعة النيشرية التى نصت رأسها فى عصر المؤلف العلام، تلك الفتنة الصماء والظلمة الدهماء، التى

حاولت نزع الإسلام من قلوب المسلمين بحيل كثيرة من المكر والخداع والتستر بستار الإسلام، كما كان شأن المستعمرين فى جميع البلاد المستعمرة حيث كانوا يستعملون المسلمين المزعومين لزعزعة الإسلام فى نفوس المسلمين فكتب الشيخ الإمام رسالة بين فيها أحوال هذه الطائفة الضالة وأحكامها فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ثم أرسل إلى علماء وفقهاء الحرمين الشريفين. للتصديق والتوثيق لما كان يُكن الشيخ تجاههم من ثقة وأولوية فى الأمور الدينية والشرعية ورد أيضًا على الطوائف المنحرفة الأخرى التى عاصرته. وها نحن نفسخ المجال لتقرأ ذلك كله بقلم المؤلف الرصين. قال:

ولنعد بعض من يوجد فى أعصارنا وأمصارنا من هؤلاء الأشقياء (أى الذين خرجوا من الإسلام بإنكارهم ضروريات الدين) فإن الفتن داهمة والظلم متراكمة، والزمان كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرًا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرًا، والعياذ بالله تعالى، فيجب التنبه على كفر الكافرين المتسترين باسم الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الرد على الفلسفة قام الشيخ الإمام بفريضة الرد على الفلسفة القديمة والجديدة وحطم قصورهما الشامخة وزلزل أركانها التى كانت بمثابة المسلمات المقررات عندهم.

وألّف فى ذلك رسالة عظيمة سميت بـ «الكلمة الملهمة» ، وقد اعتبرها بعض أعلام الهند «تهافت الفلاسفة» فى العصر الجديد، وهى جديرة بذلك؛ لأهمية مضمون الكتاب وقيمته فى هذا الفن.

لقد كان الشيخ طويل النفس قوى الشكيمة فى مناقشة الفلاسفة ومجادلتهم حتى تراه يضيق الخناق على أعتى الفلاسفة وأعندهم ويسد أمامهم كل الطرق والمنافذ ليلجئهم إلى الاقتناع والاعتراف بالحق والتنازل عن الباطل. وكل ذلك بنفس المناهج وبنفس المبادئ التى آمنوا بها واطمئنوا إليها.

فإليك جانبًا من هذا الرد الرائع الممتع.

الحمد لله إن الأفلاك، والكواكب، وحركاتها، ودوراتها قد أكدت تأكيداً يقطع دابر كل شك وريب، أن الخالق جل وعلا مختار مطلق، وألقمت أفواه الفلاسفة كذلك حجراً بأيديهم. لأن الفلسفة تدعى.

ـ إن الأفلاك بسائط، وكل فلك له طبعية واحدة ومادة واحدة وإن كانت الأفلاك جميعها مختلفة الطبائع ومتباينة المواد فيما بينها.. كما تدعى.

ـ إن الطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تفعل إلا فعلاً واحدًا على نسق واحد، ووتيرة واحدة، ولا يمكن التفاوت فيها فى حال من الأحوال.

ولذلك كان الشكل الطبيعى كرويا لكل بسيط لأن الشكل الكروى هو الذى يكون على نسق واحد بخلاف المثلث والمربع وغيرهما فإنهما لا يخلوان عن الخط والسطح والنقطة فلم يكن على نسق واحد..وكذلك تدعى الفلسفة .

ـ إن الفاعل لا يتأتى منه الترجيح بين المتساوين لأن نسبته إليهما سواسية والترجيح لأحدهما مع استواء النسبة ترجيح بلا مرجح وهو باطل.

وهنا نود أن نذكر الفلسفة السفيهة هذه الدعاوى الثلاث وننبهها إلى مسلماتها التي أسلفناها آنفًا، ثم نتساءل ، أين المخرج؟ وأين السبيل؟ وأين المبرر؟ لذلك التباين والاختلاف الذين اعترفتم بهما فى الأفلاك والكواكب؟

وها نحن نذكر بادئ ذى بدء كلمات وجيزة فى أشكال كل فلك وحركاته وجهاته وأجزاءه، وحركات الأجزاء وجهاتها ثم نأتى بإيرادتنا عليه.

فالأفلاك بصفة عامة كرات مجوفة فيها سطحان أحدهما محدب والآخر مقعر، والأفلاك بعضها فى جوف بعض، وفلك القمر أخرها وأسفلها، وفى بطنه تحتل العناصر الأربعة الفلك الأطلس، وهو أعلى الأفلاك جميعا وأسرعها، يدور على مركز العالم من المشرق إلى المغرب، ويتم دورته فى يوم وليلة أى ٢٤ ساعة إلا ثلاث دقائق ٥٦ ثانية. القطب الشمالى والجنوبى قطبان له. ومعدل النهار منطقته

تى فى سطحها يقع خط الاستواء. وهذا الفلك يدير جميع الأفلاك التى تحته مع حركته وطلوع جميع الكواكب وغروبها مرتبطان بحركته، ولا يوجد فيه أى كوكب أو جزء.

أقول: إن قولهم «لا يوجد فيه أى كوكب» مجازفة عشواء بل أقصى ما يمكن أن يقال إننا لا نعلم؛ لأنه يمكن أن تكون فيه بعض الكواكب ولا ترى لنا بسبب شدة البعد بل من المحتمل أن تكون بعض هذه الكواكب التى نراها نحن، فى الفلك الأعظم أو وراء المجرة أو النثرة أو كف الخضيب، بل كل موضع يبدو فيه الأشكال السحابية يحتمل احتمالا صريحًا أن تكون هذه الكواكب فوق جميع الثوابت، ولكن لا تتبين أجرامها بسبب تقاربها فيما بينها وبعدها عنا بعدًا شديدًا وبذلك تبدو مثل السحاب الأبيض كأنه سطح لامع.

فلك الثوابت، مركز فلك الثوابت ومركز الفلك الأطلس متحدان غير أن قطبه يختلف عن قطبى العالم بـ ٢٣ درجة و٢٧ دقيقة وحركته من المغرب إلى المشرق (عكس حركة الفلك الأطلس). ولا تتم دورته فى مدة اثنين وعشرين ألف عام، وزعم المتقدمون أنه يكمل حركته فى ستة وثلاثين ألف عام، وجميع الكواكب الثوابت المتباينة الأحجام المختلفة الألوان توجد فيه، وممثلات السموات السبع من المراكز والأقطاب والجهات والحركات والمقادير والسرعة متساوية، ولذلك تسمى بالممثلات لأنها تماثل فلك البروج فى هذه الأمور، ولا توجد فيه أجزاء سوى هذه الكواكب الثوابت.

أقول، أجل، توجد الآلاف فضلا عن الواحد. وحركات الثوابت متباينة فيما بينها كما ذكر فى زيج الأجد، وقد ضبطت فيه حركات الثمانين منها، فبعضها تقطع مسافة درجة واحدة فى ثلاث وستين سنة كعرقوب الرامى وبعضها تقطع درجة واحدة فى أربع وستين سنة كالنسر الواقع، وبعضها الأخرى تقطع درجة واحدة فى مدة خمس وستين سنة، كركبة الرامى كما تقطع الأخرى هذه الدرجة

فى ستة وستين عاما، كالسهيل اليمانى، والنسر الطائر وجدى الفرقد، وبعضها فى سبعة وستين عاما كنير الفلكة حتى يبلغ هذا الاختلاف إلى اثنين وثمانين سنة. فى درجة واحدة فإذا كـان هذا التفاوت فى درجة واحدة بتسع عـشرة سنة ففى الدورة الكاملة يبلغ هذا الـتفـاوت إلى ست آلاف سنة تقـريبًا فـإن دل هذا فـإنه يدل على اختلاف التداوير والحركات.

وكـذلك تخـتلف التـفاصـيل فى فلك زحل، والمشـترى، والمريخ، والشـمس، والزهرة والعطارد، والقمر.

وقد أورد المؤلف العلام اثنين وثلاثين مؤاخذة قـوية وقضًا محكمًا على مذاهب الفلاسـفة مستـعينًا فى ذلك بذكاءه المفـرط وذهنه الوقاد وإليكم خلاصـة المؤاخذة الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين أولاً :

أـ من خصص التـداوير فى الحوامل بالموضع المعـين من الفلك مع أن كل نقطة من نقاط الفلك تحتمل ذلك وتستـوى نسبة جـميعهـا إليها، فـمن أين نشأت هذه الأجزاء المتباينة مـن الطبيعة الواحدة فى المادة الواحدة؟ والحل أيسـر وأسهل، غير أن الجحود والإنكار والعناد الأعمى لا دواء لها.

ب ـ هذا التباين كـما يمكن أن يحدث من القابل يمكـن كذلك أن يحدث من الفاعل أيضًا، ولا يمكن ذلك من القابل فيما نحن فيه إذ القابل هنا مادة بسيطة فما المانع أن يكون هذا التباين من الفاعل، (ذكره الطوسى).

حقًـا إن الاضطرار والعـجز ليؤديـان إلى مثل هذا التناقض البـين واللف والدوران والحيل العـقيمة. ونتسـاءل هنا وحق لنا التساءل هل الفـاعل يتصرف حسب استعداد القابل وصلاحيته، أم يمشى على هواه واستبداده، والأول مفقود والثانى هو المقصود.

وقد لاحظت كيف تداعت لبنات الفلسفة متساقطة بعضها فوق بعض وانهارت قصورها الشامخة من أساسها وهى خاوية على عروشها.

وبذلك لم يستطع الفيلسوف الجونفورى أن يتمالك نفسه على حل الطوسى فانفلتت منه هذه الجملة، قد بنى قصراً وهدم مصراً وبطل الدليل وانثلمت أصول كثيرة.

جـ - إن هذا التباين يمكن تفسيره بأن الصور النوعية نزلت على بعض المواضع من الأفلاك على شكل متفرق، ولهذا تكونت الكواكب والتداوير والحوامل والخوارج على ألوان شتى من جرم الفلك، فمغارات الأفلاك وأجواف التداوير، قد حدثت بأنفسها، ولما كانت الحوامل والخوارج على غير المركز فحدث تغاير المتممات تلقائياً.

وواضح أن المعضلة لم تنجل بعد، وذلك أولا، أننا قد افترضنا أن المادة ليست فيها استعدادات متباينة، فمن أين انطبعت هذه الصور المتنوعة فى أنحاء من الفلك؟..ومن أين فى الحوامل هذه المغارة التى فيها هذه التداوير؟.. ومن أين فى التداوير هذا الجوف الذى فيه الكواكب؟.. ومن أين نزلت هذه الأفعال المتباينة. هذه هى المعضلات والعويصات التى حار فى حلها الحائرون، وإن المحل أيسر بكثير من اللف والدوران والتحايلات الملتوية كما سترى.

لقد ذكر فى «المواقف» وغيرها أربعة حلول لهذه الأسئلة.

الأول: وما أروع هذا الحل، وما أبدعه حيث يكشف عن عوار الفلسفة ومعايبها إذ يقولون، إن الحوامل والتداوير، والثوابت والسيارات والشمس والقمر إنما هى أوهام افتراضية، وأحلام خيالية لا وجود لشيء منها فى الواقع وحقيقة الأمر، وإنما السماء صفحة ملساء لا تدوير فيها ولا كوكب.

انظر: هل هناك حل أفضل من هذا يا للعجب، لقد نقل هذا الحل الركيك المتفلسف الجونفورى ثم علق عليه قائلا، لا أزيد على الحكاية، أى انظر ظاهره ولا تبحث عن باطنه.

هل رأيتم عناداً كهذا الذى يرضى بكل هذا السفه وهذه السفسطة ولا يرضى

بالإيمان بالخالق المختار. وهذا الحل الأول هو الحل الحقيقى الذى رأيت حاله، أما بقية الحلول الثلاثة فإنها تستلزم الإيمان باخالق المختار ـ الذى يهربون منه ما أمكن ـ بطريق مباشر أو غير مباشر.

ثانيًا: أقول ومن خص كل قطعة من المواد المتشابهة للصور النوعية ولم لم تنطبع كل صورة على كل قطعة، وقد يكرر هنا نفس الرد المار بك آنفًا أى كون ذلك من الفاعل كما ذكره السيد الشريف ثم يتوجه إليك نفس النقض الذى أسلفناه فى (ب) هل الفاعل يتصرف حسب استعداد القابل وصلاحيته أم حسب استبداده وهواه).

إن العلامة السيد الشريف مسلم من أهل السنة والجماعة وبذلك نراه قد اطمئن قلبه بهذا الحل وسطره قلمه، والطوسى أيضًا ادعى الإسلام، وقد سبق به قلمه ولم يخطر بباله أن هذا الحل يهدم بنيان الفلسفة من أساسه غير أن الفلاسفة والجونوفرى قد وقع هذا الحل على رءوسهم كصاعقة، وبذلك قال الجونفورى الفيلسوف، قد بنى قصراً وهدم مصراً وبطل الدليل وانثلمت أصول كثيرة.

د ـ وقد قام الجونفورى بنقض هذه الحلول بأسرها، واعترف بأن هذه الإيرادات قوية للغاية ومعقدة جدًا لا تنحل، وأن الأذهان حائرة فى حالها وكلما أراد الفلاسفة حل هذه المعضلات ازدادت معاقدها، حتى عجزوا عن آخرهم وهنا نتسائل الجونفورى، إذا كان الفلاسفة قد عجزوا عن حل هذه المعضلة، فأنت ابن الفلسفة البارّ، ومحرز قصبات السبق فى هذا المضمار، وللفلسفة فيك أمل كبيرٌ، فلتدل أنت بدلوك ولتنقذها من انهيار، غير أننا نجده أيضًا عاجزاً مسكينًا، معترفًا بعجزه وضيق حيلته، واقعًا فى تناقض سافر، حيث قال، إن الفلكيات كرات كثيرة من مواد مختلفة، وقد اقتضت عناية الخالق بأن تكون بعضها فى جوف بعض وبعضها فى ثخن البعض كما اقتضت العناية الإلهية، أن يكون مركز البعض الذى فى الثخن شاملا للمحيط ومركز البعض الآخر لا يكون شاملا للمحيط، ومن هنا

حدثت هذه المغارات، وإذا افترضنا أن العناية الإلهية لم تقتضى ذلك، لكانت الأفلاك كلها غير مجوفة مثل الكرة الأرضية، فكما أن كونها جوفاء لم يؤد إلى تكثر فى قوة الفعل.

فكذلك هذه المغارات والتداوير لا تؤدى إلى تكثر الفعل، إنما اللازم الذى لا يتخلف أبدًا أن يكون السطح كرويًا فحسب (أعم من أن يكون فيها مغارات وتداوير) وعدم كروية السطح هو الذى يؤدى إلى تكثير الفعل وليس مراد القوم ـ الفلاسفة ـ من بساطة الفلك أن لا تكون فيه الكواكب والأجزاء (فلا منافاة بين بساطة الفلك وكونه ذا أجزاء وكواكب) أو مرادهم من بساطة الفلك أنه لا يقبل الكسر والانكسار والمزاج كما يقبل ذلك كله المواليد الثلاثة ـ المعادن والنباتات والحيوانات ـ أو مرادهم من بساطة الفلك بساطة أجزاء الفلك من الكواكب والحوامل والخوارج والتداوير والمتممات، أى كل جزء من هذه الأجزاء بسيطة.

أقول، هل لاحظت حيل العجز المضحكة وأفاعيل الاضطرار النادرة وما أصدق قول القائل ـ الغريق يتشبث بثمامة ـ أولا، إن جميع الكتب المعنية بهذا الفن ناطقة بصوت مدو، أن الأفلاك بسائط، وها نحن نرى أن بساطة الفلك قد آن أوانها وحان رحيلها على لسان هذا الفيلسوف العبقرى، ألا ترى أنه قال: إن الفلك ليس بسيطًا إنما البسيطة أجزاءه.

ثانيًا: وإن لم تسلم المزاج فقد سلمت الأجزاء، ونستفسر هنا، هل طبيعة الأجزاء متحدة أم متباينة، على الأول من أين هذا الاختلاف وعلى الثانى أين البساطة؟..

ثالثًا: لقد ذكر أن كون الفلك ذا جوف لا يؤدى إلى تكثر الفعل، كأنه من المسلمات المقررة، غير أنه ليس كذلك حيث إنه يتوجه إليه نفس النقض، وقد اعترف الجونفورى بأن اقتفاء الطبيعة عدم الجوف، وبهذا قد قوى إيرادنا وازداد به استحكاما.

رابعًا: أجل! إن العناية الإلهية فعلت ما فعلت غير أن اختلاف العنايات لا يزال معضلة، فلم تباينت نسبة العنايات إلى الأجزاء ثم تعيين الأجزاء والمقادير والمواضع وغيرها إما أن يكون بحسب استعداد القابل أم بحسب استبداد الفاعل وهواه، والأول مستحيل، فمن أين تباين الاستعداد فى المادة البسيطة وعلى الثانى يجب الإيمان بالخالق المختار.

اتهمت أن الطوسى قد هدم مصراً، فهل سلمت منك لبنة من لبنات الفلسفة فقد لعبت نفس اللعبة وقد صدق عليك تمامًا، كرٌّ إلى منه فرّ.

سبحان الله، انظر كيف يفرون من الإيمان بالخالق المختار، حتى كادت تنقطع أنفاس هؤلاء فى حل هذه الإيرادات وعجزوا عن آخرهم، وتفوهوا بما لا ينبغى أن يصدر منهم من الأباطيل والمضحكات ولم يبق أمامهم فى مقتضى العقل خيار سوى الإيمان بالخالق المختار، وقد آمنت قلوبهم وانفلت من ألسنتهم، غير أنهم لا يعترفون بذلك لئلا ينهار قصر الفلسفة جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوا.

خامسًا: هذا هو الجونفورى الذى قال فى فصل الحيز من كتابه الظلمة النازغة المسمى ظلمًا، «بـ الشمس البازغة»، وجود الجسم بدون فاعل وإن كان غير ممكن لكن نسبة الفاعل إلى جميع الأحياز على السواء فلا يمكن تعيين الحيز منه ما لم يكن لطبيعة الجسم خصوصية معه.

إذا لم يمكن تعيين الحيز من الفاعل ما لم يكن لطبيعة الجسم خصوصية معه فمن أين جاءت هذه التعيينات المتعددة بغير خصوصية فى الطبيعة؟..

هذه قطرة من ذلك البحر المواج بالدرر الفريدة والجواهر الكريمة التى التقطنا منها بعضا معدودًا حسب استطاعتنا وفهمنا للقارىء الكريم وإلا فكل مؤلف من مؤلفات الإمام يزخر بأمثال هذه الابتكارات الإيمانية الرائعة التى تملأ القلوب والوجدان نورًا وبهاءًا والعقول والمشاعر ضياءًا وسناءًا.

وربما يعتقد من يرى رد الإمام على الفلسفة بهذا الأسلوب الرصين وذلك المنهج القوى أنه كان مدمنًا للعلوم الفلسفية ليل نهار، والتفلسف كان شغله الشاغل، غير أن الحقيقة بخلاف ذلك تماما كما نجد ذلك فى كلماته حيث قال: لقد قرأت بعض الكتب فى الفلسفة القديمة بين يدى والدى الماجد ـ قدس سره الشريف ـ حسب المقرر فى المنهج النظامي ـ فى الهند ـ ثم قمت بشرح بعض الدروس منها للطلبة أيامًا قلائل لكن نفسى كانت نافرة من أول يوم من ضلالاتها وظلماتها.

وقد مضى خمس وأربعون سنة ولم ألتفت إلى الفلسفة ولم أفتح أى كاب فى هذا الفن، ولقد وفقت بجاه المصطفى ﷺ أن أقوم بهذه الخدمة المتواضعة، خدمة الرد على الفلسفتين والكشف عن قباحتهما وشناعتهما وحماقتهما وضلالتهما للإخوة المسلمين كما تحدث عن نعمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه، وقال فى موضع آخر: إن الحديث عن هذه المسألة الدينية المهمة من مميزات كتابى هذا وخصائصه ولله الحمد ، وعامة مباحث هذا الكتاب وتحقيقاته مما أفاض المولى القدير ـ عزَّ وجلَّ ـ على قلب الفقير سوى بعض الأبحاث المعدودة القليلة وهذا ليس خاصا بهذا الكتاب فحسب بل عامة كتب الفقه زاخرة بالتحقيقات النادرة والتدقيقات الرائعة.

إلمامه بعلم الهيئة قد أرسل فضيلة الشيخ العلامة ظفر الدين اليهارى من أبر وأحب تلاميذ الشيخ الإمام إلى دار الإفتاء بمقر الشيخ الإمام عمودًا مقطوعًا من الصفحة الثانية لصحيفة «إكسبريس» الإنجليزية الصادرة فى ١٨ أكتوبر عام ١٩١٩م لينظر فيها الإمام ويقرأ ذلك التكهن المذهل الذى أشاعه الخبير بالفلكيات ألبرت الأمريكى، فترجمت تلك المقطوعة إلى اللغة الأردية، وكانت خلاصته كما تلى:

إن سيارة عطارد، والمريخ، والزهرة، والمشترى، وزحل، ونبتون، ستقترن فى ١٧ من شهر ديسمبر، وتجتمع هذه السيارات الستة التى تفوق قوتها قوة جميع

السيارات علياالإطلاق، على بعد ٢٦ درجة من الشمس وتجذبها إليها على خطوط متوازية، ولا تزال تقابلها شيئًا فشيئًا حتى تتم المقابلة على الصورة الكاملة. ويأتى معها الكوكب يورينس، ولم يحدث مثل هذا الاجتماع فى تاريخ فن الهيئة إلى الآن. وستنشأ بذلك موجة عامة وتيار مغناطيسى قوى، من جرم كوكب يورينس والسيارات الستة هذه، فتثقب فى وجه الشمس كرمح كبير، وإن قران هذه السيارات الستة العظيمة الذى لم يعهد مثله منذ ألفى قرن، سيعرض الولالات المتحدة بعواصف هوجاء، مدهشة ويدمرها تمامًا.

وهذا الكلف سيظهر في وجه الشمس فى ١٧ من ديسمبر ويرى مكشوفًا للعيون بلا معونة تلسكوب، ومثل هذا الكلف لم يعهد فى حين من الأحيان وهذه البقعة التى ستحدث فى جانب من الشمس ستؤدى إلى هزات عنيفة فى الكرة الهوائية وبالتالى تحدث عواصف شديدة والرعد المخيف، والمطر الغزير، والزلازل والهزات، ولا يستتب الهدوء والسكون فى كرة الأرض إلا بعد أسابيع.

ولقد أحدثت هذه الإشاعة الكاذبة غير العلمية هرجًا ومرجًا فى المجتمع الهندى وأوقعت الناس فى قلق عنيف وذعر فظيع، غير أن الشيخ الإمام قد قام برد علمى متين على هذه الشائعة التى نشرها البروفيسور ألبرت، فهدأت الأحوال وقرت العيون بتحقيقات المؤلف العلام.

ونشر هذا التحقيق الممتع فى مجلة «الرضا» الشهرية فى عدد صفر وربيع الأول عام ١٣٤٨ الموافق ١٩١٩هـ وكانت قد نالت هذه المقالة العلمية قبولا عظيمًا فى جميع الأوساط، ويتألف هذا الرد من سبعة عشر دليلا قويًا.

واستفاد الإمام فى ذلك بجميع ما كتب كل من الراهب شيز والعلامة قطب الدين الشيرازى، وابن ماجة الأندلسى، وهرشل الأول، وهرشل الثانى،وهمست كوسكى، وارجر لانك من خبرات وتجارب وأحاط بجميع تجارب ومشاهدات الماضى والحال، كما استعان بذكاءه الحاد وفكره المستنير، وقد أثبت السابع عشر

من شهر ديسمبر كذب تكهن ألبرت وقد أصاب ف ياجتهاده ـ بفضل الله تعالى ـ الشيخ الإمام.

فإليك خلاصة دليله الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر.

الخامس عشر، لا حاجة لوقوع هذا الكلف في الشمس إلى الاقتران والاجتماع فإن السيارات لم تزل على مقربة من الشمس بل تجذبها دائمًا كما زعمتم فعلى زعمكم يجب أن تشتعل النيران بصفة دائمة بلا توقف، ولعل قائلا يقول، بأن السيارات لا تستطيع أن تؤثر في جرم الشمس تأثيرًا مركزًا إذا كانت متباعدة بخلاف القران فإنه في هذه الحالة تتركز قوى الجميع على موضع واحد بشكل موحد، وهذا ما يؤدي إلى اشتعال النيران وشبوب الحريق.

سلمنا، غير أن أثار السيارات لا تكون مركزة على موضع واحد من جرم الشمس لأنها منتشرة على مسافة ٢٦ درجة ٢٣ دقيقة فتقع آثار السيارات متفرقة منتشرة لا مركزة، فلم قلتم إن الشمس تتضرر، هذه المسافة التي زعمتموها قصيرة، ليست بقصيرة في الواقع، فإننا لو فرضنا خطًا مبتدأ من مركز الشمس مارًا بمراكز السيارات لبلغ طول الخط إلى أكثر من بليون ميل؛ لأن جرم الشمس يبعد عن كوكب نبتون ثلاثين ضعفًا من بعد الشمس عن الأرض فلنطرح الزيادة على الثلاثين ولنأخذ الثلاثين فقط فقد بلغ على بعد ما بين نبتون والشمس إلى بليونين وسبع مائة وسبعة وثمانين مليون ميل، ومسافة قطر المدار، خمسة بلايين وخمس مائة وأربعة وسبعون مليون ميل، ومسافة المحيط أكثر من سبعين بليونًا وخمس مائة ومليونين، ومائتي ألف ميل، ولا شك أن ٢٦ درجة و٢٣ دقيقة ستصبح هنا بليون ميل ومائتي مليون، وثلاثة وثمانين مليونًا وثلاث مائة ألف وستة وأربعين ألف ميل.

فكيف يسوغ في عقل عاقل تأثير نبتون بشكل موحد في جرم الشمس مع انتشار قوته في هذه المسافة المذهلة ولعلك تلاحظ أننا لم نعتبر اختلاف العرض بعد.

بل لو فرضنا اجتماع هذه السيارات على أقرب فلك إلى الشمس وهو عطارد فإنه بعد هذا الفرض الجدلى أيضًا تبعد الشمس عن عطارد ثلاثين مليونًا وستة ملايين ميل تقريبًا ثم قطر المدار ثمانون مليون ميل تقريبًا والمحيط سبعة وعشرون مليون ومائة وخمسة وتسعون ألف ميل ولا غرو أن ٢٦ درجة و٢٣ دقيقة قد أصبحت ستة عشر ونصف مليون، وخمسة وخمسين ألفا ومائة وثلاثة وسبعين ميلا، فهل تزعم بعد هذا أن هذه المسافة قليلة؟

بل لو فرضنا تجمع هذه السيارات على قرص الشمس نفسها فإن المسافة لا تزال هائلة بعد إذ المسافة تبقى حينئذ مائتى ألف تقريبًا لأن دائرة قرص الشمس تساوى سبعة وعشرين مليونًا، واثنين وعشرين ألفًا، وثلاث مائة وواحد وستين ميلا.

السادس عشر- سلمنا أن جرم ضعيف المسام بحيث يقبل هذه الضربات المتباعدة الشديدة البعد ثم تسرى من قرصها وتتجمع فى موضع واحد، نقول سلمنا هذا لكنه لِمَ لم تتضرر الشمس بالكواكب التى تجاور الشمس فى عامة الأحيان على بعد خمسين أو ستين أو سبعين أو مائة درجة ولم لا تحطم ضرباتها الموحدة جرم الشمس، لو قيل إن هذه المسافة مانعة لوصول موجاتها إلى وجه الشمس، نقول فالمسافة هنا أبعد مما هنالك لأن المسافة هنا ١٨٠ درجة.

ثم هذا القران الذى ادعاه ألبرت بين يورينس وغيرها ليس أمرًا محققًا بل هو حساب تقريبى، فلا يتم هذا القرآن على خط واحد بدقة على وجه التحقيق.

السابع عشر- سلمنا أن هذا كله مستقيم وصواب ولكن ما علاقة الزلازل والعواصف والرعود والأمطار بثقب الشمس وكلفها، أليس هذا الادعاء مثل تكهنات العرافين وأكاذيب المنجمين الذين يربطون حوادث العالم بالأنواء والنجوم وقد اعترفتهم ببطلانها وهى فعلا من الأباطيل، ثم هل الشمس صناعة أمريكية أو مواطن أمريكى لتختص أضرارها بالولايات المتحدة ولم لا تتجاوز أضرارها إلى بقية البلدان ولنا على ادعاء المنجم مؤاخذات أخرى لم نوردها، فيكفى للسابع عشر من ديسمبر السبعة عشر لما بينهما من التناسب.

وللمؤلف العلام حاشية نافعة تسمى، «المعتمد المستند بناء نجاة الأبد»، على كتاب جامع عظيم المقدار فى باب العقيدة الإسلامية سمى - «المعتقد المنتقد». لصاحب التصانيف الكثيرة العالم الربانى بحر الشريعة والطريقة، العلامة فضل الرسول القادرى البركاتى البدايونى ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ونفعنا الله ببركاته.

وكلاهما باللغة العربية.

وأود أن ألتقط هنا بعض المواقف للشيخ الإمام أحمد رضا خان الحنفى من بعض المسائل العقدية التى كثر فيها القيل والقال، واشتد النزاع والجدال، ولم يكن مؤلفنا ليقلد فى أمور العقيدة لما كان يتمتع باستقلالية الفكر، واستيعاب للأصول، والفروع، وإحاطة شاملة بمواقف القوم ومشاربهم، فإليكم جانبًا منه.

هل فى العقيدة ما يدرك بالعقل المحض، قال ، إن مسائل العقائد منها ما يدرك بالعقل وحده كقولنا، إن للعالم صانعًا، وله كلامًا والرسول حق، إذ لو أثبت أمثال هذا السمع لدار، ومنها ما يدرك بالسمع وحده كحشر الأجساد والثواب والعقاب فى المعاد، ومنها ما يدرك بكل كتوحيد الله تعالى فافهم.

موقف المؤلف العلامة فى النصوص الموهمة للتشبيه، أقول، يجب عليك هنا التنبه لدقيقة، وهو أن الإجراء على الظاهر، قد يطلق، ويراد به الظاهر المفهوم لنا المتبادر إلى أذهاننا، حسب ما نعهده فينا وفى أمثالنا من يد وأصبع من لحم وعظم، ذواتى طول وعرض وعمق وتجز وتركب، ونزول، بحركة من فوق لتحت، وانتقال من حيز إلى حيز وهذا ما أجمع على نفيه أهل السنة والجماعة قديمًا وحديثًا، وقد يطلق ويراد به ترك التأويل أى نجرى النص على ظاهره ونؤمن بأن له تعالى يدًا تليق به كما يعطيه النص، ولا نقول إن اليد بمعنى القدرة كما يختاره أهل التأويل ولكن نؤمن أن يده تعالى متعالية عن الجسمية، والتركيب ومشابهة الخلق، وعن أن يحيط بها عقل أو وهم، بل هى صفة من صفاته القديمة القائمة بذاته

الكريمة لا علم لنـا بمعناها وهذا هو مسلك الأئمة المتقدمين وهو المختار المعتمد الحق المبين وهو معنى مـا يقال من الجمع بين التنزيه والتشبيه، فالتنزيه حقيقة والتشبيه لفظًا، وذلك أن لا اشتراك بين شيء من صفاته وصفات خلقه إلا فى الاسم ولله المثل الأعلى.

ولقد اشتدت وكبرت فى عصرنا مذلة بعض من يدعى البلوغ مبلغ الرجال، ويدعى فى العوام من أهل الكمال فادعى أن الإجراء على الظاهر بالمعنى الأول هو الحق من المقال، وبه تقول أئمة السلف والعياذ بالله ذى الجلال، فلا والله ما هو إلا ضلال أى ضلال نستجير بذيل رحمة ربنا من المهاوى والمزال، والحمد لله المجير المتعال.

وقال فى موضع آخر، وهو يبدى موقفه من نسبة الفرح والرضاء والغضب إلى المولى عزّ وجلّ كما وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة، قال : نفى المبادئ وإثبات الغايات على ما عليه المتأخرون فإن للغضب مثلا مبدءاً وهو هيجان الدم وثوران القلب وغاية، وهو إرادة الانتقام وقصد الإسلام فالمراد بالغضب فيه سبحانه هذا لا ذاك ـ أقول أى من دون حدوث إرادة لأنها صفته القديمة وإنما الحادث ظهور تعلقها بالمراد، والحق عندنا، ما عليه أئمتنا إنا آمنا به كل من عند ربنا، لا نقول بالظاهر، ولا نخوض فى السرائر، ونكل العلم إلى العليم القادر.

هل الغنى عن المؤثر والوجوب الذاتى، مترادفان، قال ، أقول، الغنى عن المؤثر يساوق الوجوب الذاتى. والوجوب الذاتى لا يقبل التعدد ونفى الغيرية المصطلحة لا ينفيه والحق الحقيق بالقبول المستقر عليه رأى الفحول، كالإمام الرازى والعلامة سعد وغيرهما ما ألقينا عليك من قبل إن الصفات واجبة للذات بالذات لا بالذات مستندة إلى الذات لا على وجه الخلق والأحداث بل على جهة الاقتضاء الذاتى الأزلى، والافتقار فى الوجود والقيام والممكن وكذا الحاديث الذاتى أعم من الزمانى مطلقًا والقديم من الممكن من وجه بيد أنا لا نطلق الحدوث إلا فى الزمانى

كما لا نقول المخلوق إلا عليه لأن الخلق هو الإيجاد بالاختيار فاحفظه فإنه هو الحق وبه تنحل الإشكالات جميعًا، وبالله التوفيق.

هل القضاء المبرم يرد بالدعاء، قال، أقول أخرج أبو الشيخ في كتاب الثواب عن أنس بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال، قال رسول الله ﷺ، أكثر من الدعاء فإن الدعاء يرد القضاء المبرم، وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ وابن عساكر عن نمير بن أوس الأشعرى مرسلا كلاهما عن النبى ﷺ قال : الدعاء جند من اجناد الله مجند يرد القضاء بعد أن يبرم.

وتحقيق المقام على ما ألهمنى الملك العلام أن الأحكام الإلهية التشريعية كما تأتى على وجهين، (١) مطلق عن التقييد بوقت كعامتها و(٢) مقيد به كقوله تعالى:﴿ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ ، فلما نزل حد الزنا، قال ﷺ خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا، الحديث رواه مسلم وغيره عن عبادة رضى الله تعالى عنه، والمطلق يكون فى علم الله مؤبدًا ومقيدًا وهذا الأخير هو الذى يأتيه النسخ فيظن أن الحكم تبدل لأن المطلق يكون ظاهره التأبيد حتى سبق إلى بعض الخواطر أن النسخ رفع الحكم وإنما هو بيان مدته عندنا، وعند المحققين كذلك الأحكام التكوينية سواء بسواء فمقيد صراحة كأن يقال، لملك الموت عليه الصلاة والسلام اقبض روح فلان فى الوقت الفلانى، إلا أن يدعوفلان، ومطلق نافذ فى علم الله تعالى وهو المبرم حقيقة ومصروف بدعاء مثلا وهو المعلق الشبيه بالمبرم فيكون مبرمًا فى ظن الخلق لعدم الإشارة إلى التقييد معلقًا فى الواقع فالمراد فى الحديث الشريف هو هذا أما المبرم الحقيقى فلا راد لقضاءه، ولا معقب لحكمه وإلا لزم الجهل تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فاحفظ هذا فلعلك لا تجده إلا منا وبالله التوفيق.

قضية تكفير المنكرين لما علم من الدين بالضرورة: أقول تحقيق المقام: إن أكثر الحنفية يكفرون بإنكار كل مقطوع به كما مصرح به فى «رد المحتار» وغيره

وهم ومن وافقهم هم القائلون بإنكار كل مجمع عليه، بعد ما كان الإجماع قطعيًا نقلا ودلالة ولا حاجة إلى وجود النص، والمحققون لا يكفرون إلا بإنكار ما علم من الدين ضرورة. بحيث يشترك في معرفته الخاص والعام المخالطون للخواص، فإن كان المجمع عليه هكذا كفر منكره وإلا لا، ولا حاجة عندهم أيضًا إلى وجود نص فإن كثيراً من ضروريات الدين مما لا نص عليه كما يظهر بمراجعة «الإعلام» وغيره فالتقييد بوجود النص ضائع على القولين فاعرف.

هل النبي سيدنا محمد ﷺ أفضل العالمين، قال والحق أن تفضيل نبينا ﷺ على العالمين جميعًا مقدوع به مجمع عليه، بل كاد أن يكون من ضروريات الدين، فإني لا أعلم يجهله أحد من المسلمين، فاعرف وتثبت، وقد بينت في كتابي «تجلي اليقين بأن نبينا سيد المرسلين» إن خلاف المعتزلة أيضًا في غيره ﷺ، من الأنبياء السابقين فقالوا بتفضيل الملائكة عليهم صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، أما هو ﷺ فأفضل منهم جميعًا بإجماع بلا نزاع، أما الزمخشري فقد سفه نفسه وجهل مذهبه كما نبه عليه العلامة الزرقاني في «شرح المواهب اللدنية».

هل صفة الله عز وجل عين الذات، قال بعد إيراد المذاهب ومناقشة أدلتها، وبالجملة فالذي نعتقده في دين الله تعالى أن له ـ عزّ وجلّ ـ صفات أزلية قديمة قائمة بذاته ـ عزّ وجلّ ـ لوازم لنفس ذاته تعالى ومقتضيات لها بحيث لا تقدير للذات بدونها وهي المفتاقة إلى الذات لأنها باقتضاءها وقيامها بها وهي الكمالات الحاصلة للذات بنفس الذات فلا مصداق لها إلا الذات فلها حقيقة بها هي هي وهي المعاني القائمة القديمة المقتضيات للذات، وحقيقة بها هي وما هي إلا عين الذات من دون زيادة أصلا، فافهم وتثبت وإياك أن تزل فإن المقام مزلة الأقدام وبالله التوفيق وبه الاعتصام.

هل أبوا النبي ﷺ كانا من أهل الإيمان، قال: ونص الإمام الرازي في «أسرار التأويل» وغيره من المحققين حتى المولى بحر العلوم في «الفواتح بإسلام آباء»

الأنبياء وأمهاتهم جميعًا من الأقربين إلى آدم وحواء عليهم الصلاة والسلام وقد أثبت ذالك الإمام الجليل الجلال السيوطي في نبينا ﷺ .

وللعبد فيه رسالة مستقلة سميتها ... «شمول الإسلام لأصول الرسول الكرام» فهذا الذي نحب أن ندين الله به. أما آزر فعم كما نص عليه الإمام ابن حجر في «شرح أم القرى» وغيره في غيره والعرب تسمى العم أبا : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

وقال في موضع آخر، في هذه المسألة، وبالجملة فقد ظهرت لنا بحمد الله تعالى على إسلام الأبوين الكريمين رضي الله تعالى عنهما دلائل ساطعة لم تبق لأحد مقالا ولا لريب والشك مجالا، والخلاف لم يخف عنا ولكن إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ولله الحمد.

اجتهاد رائع في آية ليس «كمثله شيء»، قال، وأنا أقول ـ يظهر لي ـ والله سبحانه وتعالى أعلم ـ أن الكريمة كأنها دعوى مع بينة وذلك، أنه سبحانه واجب الوجود ـ فهو مستحيل الانتفاء ـ ولو كان له مثل لكان هو مثل مثله بالضرورة، لكنه لا مثل لمثله فوجب أن لا يكون له مثل وإلا لزم انتفاء الواجب وهو محال، وبعبارة أخرى، في صفات الإله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما لا يقبل العقل اشتراكه بين اثنين فلو كان له سبحانه مثل لا تصف بهن فتعالى عن المثلية، وتعالى المثل عن المثلية باطل صريحًا فلزم أن لا يكون له تعالى مثل أصلا ـ فعلى هذا لا زيادة ولا تأويل والله أعلم بمراد التنزيل.

موقف المؤلف العلام، من تنويع كلام الله ـ عزّوجلّ ـ إلى النفسي واللفظي، وله في هذه المسألة رسالة نفيسة مسماة بـ «أنوار المنان في توحيد القرآن»، قال، والحق عندنا أن التنويع إلى النفسي واللفظي إنما مال إليه المتأخرون، إفحامًا للمعتزلة وإفهامًا للعقول السافلة، كما اختاروا في المتشابهات مسلك التأويل، وإنما المذهب ما عليه أئمة السلف.

إن كـلام الله تعـالى واحـد لا تعـدد فيـه أصلا لـم ينفـصل ولن ينفـصل عن الرحــــمن، ولـم يحـل في قلـب ولا لـســان، ولا أوراق ولا آذان، ومع ذلـك ليس المحفـوظ في صدورنا إلا هو ولا المتلو بأفواهـنا إلا هو ولا المكتوب في مصـاحفنا إلا هو، ولا المسمـوع بأسمـاعنا إلا هو لا يحل لأحد أن يقـول بحدوث المحفوظ المتلو المكتـوبِ المسـموع، إنمـا الحادث نحن وحـفظنا وألسنتـنا، وتلاوتنا، وأيدينا، وكتـابتنا، وآذاننا، وسماعـتنا، والقرآن القـديم القائم بذاته تعالى، هـو المتجلي على قلوبنا، بكسوة المفهوم وألسنتنا بصورة المنطوق، ومصاحفنا بلباس المنقوش، وآذاننا بذي المسموع فهو المفهوم المنطوق المنقـوش المسموع ، لا شيء آخر غيره دالا عليه، وذلك من دون أن يكون له انفصال عن الله سبحانه وتعالى أو اتصال بالحوادث أو حلول في شيء مما ذكـر وكيف يحل القـديم في الحادث، ولا وجود لـلحادث مع القديم إنما الوجود للقـديم وللحادث منه إضافة لتكريم ـ ومـعلوم أن تعدد التجلي لا يقتضي تعدد المتجلي.

د م بد م كرلباس كشت بدل ، شخص صاحب لباس راجه خلل عرف هذا من عرف، ومن لم يقدر على فهمه فـعليه أن يؤمن بالله وسائر صفاته، من دون إدراك الكنه، وبعض تحـقيق المرام فـي كلمات السـادة الأعلام كـالمطالب الوفـية للمـولى العارف بالله سيدي عبد الغني النابلسـي وغيرها من كلمات حملة العلم القدسي، رضي الله عنهم ورحمنا في الدارين بهم ، آمين.

هل يجوز إفراد وصف الله عز وجل بإرادة الشرع، قال، إن مناط المنع إفراد الوصف بإرادة الشر، وعند الجمع لا بأس به، جملة وتفصـيلا، كأن تقول إنه تعالى هو الذي يريد الخـير والشـر، والإيمان والكفر، أو تقـول إن الكفر أيضًـا لا يقع إلا بإرادته سبحانه وتعالى كالإيمان، أو يقول قائل لا إيمان إلا بمشـيئته عزَّ وجلَّ فتقول ولا كـفر، أمـا أن تبتـدئ قـائلا يا مريد الشـرور ونحـو ذلك فهـو المحظور، وفيـه المحذور وهذا كله من باب الأدب في الكلام على وزان ما أفاده من جواز أن يقال،

الله الباسط ، القابض النافع الضار المانع المعطي، الرافع الخافض، المعز المذل، المحيي المميت المقدم المؤخر، الأول الآخر، ولا يقال، الله الضار، القابض، المانع الخافض، المذل المميت المؤخر الآخر كما نقله الإمام البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات»، عن الإمامين الحليمي، والخطيبي في «الباسط القابض» وقست عليه النافع الضار، ثم رائيته رحمه الله صرح به فيهما وفي كل ما ذكرت نقلا عن الحليمي إلا الأخير وهو كما ترى أولى بالمنع من المؤخر ثم هذا القول هو المختار، عندي وبه يشعر كلام المصنف العلام ـ أي العلامة فضل الرسول القادري البركاتي البدايوني رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته حيث قدمه. والله تعالى أعلم.

وأرجو من المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن أكون قد وفقت في نيتي حيث أردت أن أوقف القارئ الكريم على بعض المواقف النيرة من حياة هذا المجاهد الشجاع الذي وهب كل شيء في سبيل حب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحب رسوله الكريم عليه أفضل الصلوات التسليم.

وصلى الله تعالى على خير خلقه وعلى الله وأصحابه وبارك وسلم.

محمد جلال رضا

كلية أصول الدين (قسم التفسير)

جامعة الأزهر الشريف

القاهرة ـ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

نود أن نوضح للسادة العلماء ـ أدام الله تعالى بركاتهم ـ أن زيدًا الفلسفى قد ألف كتابا فى فن المنطق، وهو يدعى انتماءه إلى أهل السنة والجماعة، ويزعم انتسابه إليهم بل يعد نفسه أكثرهم علمًا وأوسعهم معرفة، ويزدرى العلماء الآخرين ويحقرهم. ألف الكتاب المذكور وشحنه بخرافات الهيولى وترهات قدم العقول العشرة وأباطيلها وغير ذلك من الأوهام الفلسفية، ومزاعم الفلاسفة.

وأُحضر ـ بصفتى خادمًا للسنة المطهرة ـ بعض الأقوال الملتقطة من هذا الكتاب إلى جناب السادة العلماء نصرة للملة الطاهرة.

القول الأول: التحقيق(١) أنها ليست الطبائع كلها مجردة محضة لكن للطبائع المرسلة فى باب التجرد والمادية مراتب إلى أن قال ـ السابعة مرتبة الماهيات المجردة بالكلية لا تعلق لها بالمادة تعلق التقويم، أو الحلول، أو التدبير، والتصرف، ولا تعلق لها إلا تعلق الخلق والإيجاد مثلا وهى حقائق المفارقات القدسية كالمعقب

---

(١) لقد قسم القوم العالم إلى أقسام، ولشرح هذه العبارة أنقل :

إن النظر فى ملكون السموات والأرض لا يكون إلا بعد معرفة أقسامها وتفصيل الكلام فى شرح أقسامها أن يقال كل ما سوى الله تعالى فهو إما أن يكون متحيزًا أو حالا فى المتحيز أو لا متحيزًا ولا حالا فى المتحيز أما المتحيز فإما أن يكون بسيطًا وإما أن يكون مركبًا، أما البسائط فهى إما علوية وإما سفلية، أما العلوية فهى الأفلاك والكواكب ويندرج فيما ذكرناه العرش والكرسى، ويدخل فيه أيضًا الجنة والنار والبيت المعمور والسقف المرفوع واستقصى فى تفصيل هذه الأقسام وأما السفلية فهى طبقات العناصر الأربعة ويدخل فيها البحار والجبال والمفاوز، وأماالمركبات فهى أربعة: الآثار العلوية والمعادن والنبات والحيوان، واستقصى فى تفصيل أنواع هذه الأجناس الأربعة وأما الحال فى المتحيز وهى الأعراض فيقرب أجناسها من أربعين جنسًا ويدخل تحت كل جنس أنواع كثيرة ثم إذا تأمل العاقل فى عجائب أحكامها ولوازمها وآثارها فكأنه خاض فى بحر لا ساحل له، وأما القسم الثالث وهو أن الموجود لا يكون متحيزًا ولا حالا فى المتحيز فهو قسمان؛ لأنه إما أن يكون متعلقًا بأجسام بالتدبير والتحريك وهو المسمى بالأرواح، وإما أن لا يكون كذلك وهى الجواهر القدسية المبرأة من علائق الأجسام أما القسم الأول فأعلاها وأشرفها، الأرواح الثمانية المقدسة الحاملة للعرش كما قال تعالى، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾. ويتلوها الأرواح المقدسة المشار إليها بقوله سبحانه:﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

القدسى وسائر العقول العشرة[1] والحقيقة الواجبة، إلى آخره ملتقطًا من ص ٢٥٠ إلى ص ٢٥١.

وقد تعرض المؤلف المذكور لهذه القضية فى رسالة له تسمى «القول الوسيط» فقال «العلة الجاعلة يجب كونها واجبة الوجود أو يمكن كونها ممكنة؟ المشهو

---

(١) العقول العشرة عند الفلاسفة،كما نقل عنهم حجة الإسلام الإمام الغزالى فى كتابه الشهير «تهافت الفلاسفة» إن الموجودات تنقسم إلى ما هى فى محال كالأعراض والصور وإلى ما ليست بمحال كالموجودات التى هى جواهر قائمة بأنفسها، وهى تنقسم إلى ما يؤثر فى الأجسام ونسميها نفوسًا وإلى ما لا يؤثر فى الأجسام بل فى النفوس ونسميها عقولا مجردة. أما الموجودات التى تحل فى المحال كالأعراض فهى حادثة ولها علل حادثة وتنتهى إلى مبدأ هو حادث من وجه دائم من وجه وهى الحركة الدورية وليس الكلام فيها، وإنما الكلام فى الأصول القائمة بأنفسها لا فى محال وهى ثلاثة، أجسام، وهى أخسها وعقول مجردة وهى التى لا تتعلق بالأجسام لا بالعلاقة الفعلية ولا بالانطباع فيها وهى أشرفها ونفوس وهى أوسطها فإنها تتعلق بالأجسام نوعًا من التعلق وهو التأثير والفعل فيها فهى متوسطة فى الشرف فإنها تتأثر من العقول وتؤثر فى الأجسام، ثم الأجسام عشرة تسع سموات والعاشر المادة التى هى حشو مقعر فلك القمر، والسموات التسع حيوانات لها أجرام ونفوس ولها ترتيب فى الوجود كما نذكره، وهو أن المبدأ الأول فاض من وجوده العقل وهو موجود قائم بنفسه ليس بجسم ولا منطبع فى جسم يعرف نفسه ويعرف مبدأه وقد سميناه العقل الأول ولا مشاحة فى الأسامى سمى ملكًا أو عقلا أو ما أريد ويلزم عن وجوده ثلاثة أمور عقل، ونفس، الفلك الأقصى وهى السماء التاسعة وجرم الفلك الأقصى. ثم لزم من العقل الثانى عقل ثالث ونفس فلك الكواكب وجرمه ثم لزم من العقل الثالث عقل رابع ونفس فلك زحل وجرمه ولزم من العقل الرابع عقل خامس ونفس فلك المشترى وجرمه وهكذا حتى انتهى إلى العقل الذى لزم منه عقل ونفس فلك القمر وجرمه.

والعقل الأخير هو الذى يسمى العقل الفعال، ولزم حشو فلك القمر وهى المادة القابلة للكون والفساد، من العقل الفعال وطبائع الأفلاك. ثم إن المواد تمتزج بسبب حركات الكواكب امتزاجات مختلفة يحصل منها المعادن والنبات والحيوان ولا يلزم أن يلزم من كل عقل عقل إلى غير نهاية لأن هذه العقول مختلفة الأنواع فما ثبت لواحد لا يلزم للآخر.

فخرج منه أن العقول بعد المبدأ الأول عشرة والأفلاك تسعة ومجموع هذه المبادئ الشريفة بعد الأول تسعة عشر. وحصل منه أن تحت كل عقل من العقول الأول ثلاثة أشياء عقل ونفس فلك وجرمه فلا بد وأن يكون فى مبدءه تثليث لا محالة، ولا يتصور كثرة فى المعلول الأول إلا من وجه واحد وهو أنه يعقل مبدأه ويعقل نفسه وهو باعتبار ذاته ممكن الوجود لأن وجوب وجوده بغيره لا بنفسه وهذه معانى ثلاثة مختلفة والأشرف من المعلولات الثلاثة ينبغى أن ينسب إلى الأشرف من هذه المعانى فيصدر منه العقل من حيث إنه يعقل مبدأه، ويصدر نفس الفلك من حيث إنه يعقل نفسه ويصدر جرم الفلك من حيث إنه ممكن الوجود بذاته، ذكره الغزالى ورد عليه وسخر منه، تهافت الفلاسفة ص ٩٣. محمد جلال رضا.

الثاني فيما بين الحكماء لكن المحققين منهم نصوا أن العلة المؤثرة بالذات هو الباري، والعقول كالوسائط والشروط لتعلق التأثير الواجب بغيرها كيف والماهية الإمكانية إنما وجودها بالاستعارة من الواجب فهو المعطي بالذات الوجودات، فإن إعطاء المستعير ليس إعطاء حقيقة، وإنما هو إعطاء من تلقاء المالك كما أن استناد إضاءة العالم إلى القمر ليس حقيقة بل بحسب الظاهر وإنما هو مستند إلى الشمس، والقمر واسطة محضة لانتقال ضوءها إلى العالم فالمنير بالذات هي لا هو فعلية الممكن للمكن ظاهرة مجازية فهذا الوجود الضعيف يصلح علة بمعنى الواسطة والشرط والمتمم والآلة لا مفيدة للوجود حقيقة وقد استوفى التحقيق في مقامه إلى آخره ملخصاً ص ٢.

ويتلوها سكان الكرسي وإليهم الإشارة بقوله، ﴿مَن ذَا الَّذي يَشْفَعُ عندَهُ إلاَّ بإِذْنه يَعْلَمُ مَا بيْنَ أَيْديهمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحيطُونَ بشَيْءٍ مِّنْ علْمه إلاَّ بمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾. ويتلوها الأرواح المقدسة في طبقات السموات السبع، وإليهم الإشارة ﴿وَالصَّافَّات صَفًّا * فَالزَّاجِرَات زَجْرًا * فَالتَّاليَات ذكْرًا﴾، ومن صفاتهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويسبحون الليل والنهار لا يفترون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

تفسير الفخر الرازي المشتهر بـ «التفسير الكبير».

المجلد الثامن سورة الأعراف، ص ٨٢، ٨٣.

محمد جلال رضا

القول الثاني: المسألة القائل بأن كل حادث مسبوق بمادة مخصوصة بالحادث الزماني والمادة حادث ذاتي. إلى آخره مختصراً ص ٢٥٥.

القول الثالث: الصورة الجسمية والنوعية أيضًا من الحوادث الذاتية ص٢.

القول الرابع ـ السرمديات، والثابتات الدهرية كالعقول والنفوس القديمة إلى آخره ص ١٥.

القول الخامس. كتب وهو يتحدث عن وجود الكلى الطبيعى فى الخارج، اعلم! أن الباقر[1] استدل على هذا بأن طبيعة الحيوان المرسل ليس متعلق الذات بمادة ومدة فلا يكون ومرهون الوجود بالإمكان الاستعدادى فالإمكان الذى هناك، ملاك فيضان الوجود، فإذا كان هذا الحيوان المتعلق بالمادة فائض الوجود فالمرسل أحق بالفيضان لاستحقاق الإمكان الذاتى، وحاصله أن الحيوان المطلق مستحق للوجود بإمكانه الذاتى والحيوان الخاص الجزئى يتوقف فى وجوده على استعداد ومادة وغواشيها فالمطلق الكلى أحق بفيضان الوجود فلا يرد ما أورده بعض الكتاب بأن الإمكان علة اقتصار علة الجعل فأحقية الفيض لا يستلزم الفعلية، لم لا يجوز أن الطبيعة لقصورها وعدم قابليتها ما استفاض الوجود؟ انتهى. ثم هذا القول مردود بوجوه، أن أحقية الفيض مستلزمة للفعلية لأنه لا بخل من جانب المبدأ الفياض فلو لم يوجد الأحق واستفاض منه غير الأحق لزم ترجيح المرجوح إلى آخره، مختصراً ص ٣٤٩.

القول السادس: واضح أن الفلاسفة قسموا المفهوم إلى جزئى وكلى فوجه إليهم إيراد مؤداه أن الجزئى المجرد لا يدرك إلا بعنوان كلى والمادى لا يمكن ارتسامه فى العقل المجرد والمفهوم ما حصل فى العقل، وقد حاول زيد توضيح هذه القضية بكلام مسهب فقال الجواب! إنا لا نسلم أن الجزئى المادى يدرك بعنوان كلى بل ذلك هو التحقيق[2]، عندنا لأن العقول العشرة عندهم مبرأة عن جميع شوائب

---

(١) أقول: إن إطلاق كلمة «المبدأ الفياض »على الله جل جلاله فيه نظر وذلك بوجوه أولا: «إن لفظ المبدأ لم يرد فى الشرع، ولكن ورد لفظ آخر يشبهه شكلا، وهو مبدئ من باب إكرام ثانيًا إن المبدأ يطلق على جانب من امتداد الكم المتصل أو المنفصل الذى يبدأ منه الحركة أو العدد مثلا فكان هذا اللفظ موهمًا، ثالثا، كذلك لفظ الفياض حيث إنه لم يرد فى الشرع رابعًا، إن إطلاق صيغة المبالغة على المولى جل جلاله متوقف على السماع، خامسا، إن هذه الكلمة تحمل معنى آخر فى اللغة يستحيل على المولى جل جلاله كما فى القاموس، فاض، أى هلك، والفياض كثير الهلكة. سلطان أحمد خان السائل.

(٢) أقول : لا يخفى قلق العبارة ههنا، ومقصوده أن الجزئى المادى له تدركه العقول بوجه جزئى بل ذلك إلى آخره، سلطان أحمد خان السائل.

النقص والقبح ومقدسة ومنزهة عن سائر القبائح والنقائص والجهل أشد القبائح فلا يعزب عن علمها ذرة من ذرات الموجود فى العالم كلياته وجزئياته ومادياته ومجرداته فلا يمكن أن لا يعلم العقل الأول مثلا تشخصات الموجودات وإلا لزم الجهل فيه، إلى آخره، بقدر المقصود ص ٢٠٦.

القول السابع: المذهب المحقق عند المحققين أن الأعدام اللاحقة الزمانية ليست أعدامًا حقيقية بل العدم اللاحق غيبوبة زمانية بناءًا على ما ثبت من وجود الدهر المعبر عنه بمتن نفس الأمر وحاق الواقع الذى يسع كل موجود وعلى هذا فالأعدام السابقة على الوجود إذا كان الحادث[1] متحققًا فى جزء من أجزاء الزمان أيضًا غيبوبات زمانية والعدم الحقيقى إنما هو بالارتفاع والبطلان من صفحة الواقع فلا يكون العدم بانتفائه عن كل جزء[2] من أجزاء الزمان كما فى السرمديات المتعالية عن الزمان والتغير وبالجملة على هذا التحقيق لا يكون الزمانيات معدومة عن الواقع بل عن وقت وجوده إلى آخره ملتقطًا ص ١٥.

القول الثامن: قد أشاد فيه بمضامين الكتاب وأثنى عليها ثناء بالغًا حتى قال إن لهذا المؤلف من القوة والتأثير ما للملك بل هو ملك نفسه وهذا الكتاب له تأثير فعال فى تصقيل الذهن، ومضامينه نافعة جدًا فى تنوير الفكر كما أشاد بمحتويات الكتاب فى خطبته قائلا: إن محتويات هذا الكتاب بالغة فى اكتناه الحقائق ومتحلية بالتدقيق الفصيح والتحقيق الصريح وسمى كتابه هذا «المنطق الجديد لناطق ألنّا له الحديد» وهو الاسم المطبوع على واجهة الكتاب غير أن اسمه فى متن الكتاب

---

(١) هذا مستغنى عنه بعد ذكر السبقة على الوجود، كما لا يخفى. لا يبدو ما ههنا فى الأصل لعله «أن يقول أو نحوه» والمعنى تام بدون ذلك أيضًا محمد أحمد المصباحى.

(٢) أقول، هذا جهل عظيم فإن الزمانى لا يوجد إلا فى الزمان فإن خلا عنه الزمان بجميع أجزائه خلا عنه الواقع البتة، وقس عليه المكانى إن خلت عن الأمكنة بأسرها كان معدوما فى نفس الأمر وإلا لم يكن المكانى مكانيًا. (سلطان أحمد خان السائل).

يختلف عنه قليلا فقد ورد اسمه فى داخل الكتاب «المنطق الجديد من ناطق من ألنا له الحديد» (أى من «ناطق» بدل لـ «ناطق») والمطلوب توضيحه من السادة العلماء، هل هذه الأقوال السابقة موافقة للحق والصواب أم مجافية عنهما من ناحية النظرة الشرعية؟ وهل هذا الثناء والإطراء متحليان بحلية الصواب أم عاطلان عنها؟ وهل فى تسمية الكتاب بهذا الاسم من محذور شرعى؟

سلطان أحمد خان غفر الله له

غرة شهر رجب عام ١٣٠٤ من الهجرة

الإجابة:

الحمد لله الذى رضى له الإسلام دينا، وأغنانا عن شقاشق الفلاسفة غناء مُبينا، وأرسل نبيا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فأتم الحجة وأوضح المحجة، وصدع بالحق دقه وجله، فصلى الله تعالى وبارك عليه وعلى آله وصحبه، حماة السنن، ومحاة الفتن، وكل محبوب ومرضى لديه، صلاة تبقى وتدوم بدوام الملك الحى القيوم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك فى الخلق والتدبير والأمر والتقدير والوجود القديم والعلم المحيط وأن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الآتى بالملة الغراء والحكمة البيضاء المنزهة عن كل خبط وتخليط وإفراط وتفريط، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وكل منتم إليه آمين ! آمين! إله الحق آمين!

ثبت الله عز وجل خطأنا على دين الحق، وحفظنا عن آفات التفلسف وعاهاته.

إن هذه الأقوال جميعًا بصفة عامة ـ شنيعة جدا وبالغة غاية القبح والفظاعة، ولقائلها وعيد شديد وتهديد أليم فى الشرع المطهر، وعلى وجه الخصوص، القول الأول، فإن بعض ما يستفاد منه بوضوح أن البارى عز وجل عاطل عن التدبير والتصرف فى الكائنات المادية وفى معزل عن التدبيرات البينة والتصرفات المحكمة والترتيبات البديعة التى تتجلى فى البدن الإنسانى صباحا ومساءً وليل نهار والعجائب الكثيرة التى تظهر كل وقت وحين، التى تحار فى استكناه حقائقها العقول المتوسطة، وأن هذه الصنائع البديعة وتلك الأفعال الجليلة، وهذه الأمور الجميلة من مبدعات النفس الناطقة ومخترعاتها التى لا علاقة لها بالله عز وجل، ولا تصرف له فى شىء منها.

لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ استغفر الله العظيم ـ والعياذ بالله الكريم، لقد بعد عن الحق وحاد عن جادة الطريق، هل هناك كفر أكبر من هذا؟ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً وقد تكفل القرآن الكريم بالرد على هذه الترهة الفلسفية

وأغنانا عن اللتيا واللتى فاقرأ مستهلات سورة يونس، ورعد، والسجدة تجدها كافية فى هذا الباب.

ففى سورة يونس، قال المولى عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِى اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، [يونس ٣:٦].

وفى سورة الرعد يقول المولى عز وجل: ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد ٢:٤].

وفى سو رة السجدة قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُم مِن نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَي الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾، [السجدة ٣:٩].

وفى سورة يونس أيضًا قال الحق جل جلاله : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾، [يونس، ٣١].

أى قل للكافرين من يرزقكم من السماء ـ بإنزال المطر ومن الأرض بإنبات الزرع ومن يملك السمع والأبصار بربط المسببات والعواقب بالأسباب العادية والمبادئ الجارية. ومن يحمل الهواء الصوت بالقرع ويأمره بالحركة فيوصله إلى العصبة المفروشة فى الأذن ثم يخلق فيها قوة الإدراك بمحض قدرته الكاملة ولو لم يشأ لن تشعر الأذن أبدا بصوت الصور المذهل فضلا عن الأصوات العادية وكذلك العين فإنها لن تدرك المرئيات التى أمامها ـ وإن انتفت الموانع كلها وتوفرت الشروط العادية كلها (والله أعلم أن ذلك بالانطباع أو خروج الشعاع كما قد شاع أو كيفما شاء) إلا إذا أمر الله الحكيم بالإدراك ـ فإن لم يشأ لن تدرك العين المكشوفة الجبل الأشم فى ضياء النهار، ومن يخرج الحى من الميت أى المؤمن من الكافر، أو الإنسان من النطفة، أو الطير من البيض، ومن يدبر الأمر، أى هو الذى يتصرف فى السماء والأرض، ويدبر كل نشاط من أنشطة الجسم وكل نظام من أنظمته؛ لأنه الذى يوصل الغذاء إلى الجسم ثم يمسكه فيه فيمنحه قوة الهضم ويخلق العطش لتيسير الدفع إلى الخارج ثم يوصل الماء إليه ويحول المادة الغليظة

إلى المادة الرقيقة ويصير المادة اللزجة مادة منزلقة ثم يطرح مخلفات كيلوس[١]،إلى الأمعاء ثم يوصل الخالص منها إلى الكبد عن طريق ماساريقا [٢]، ويحوله إلى مادة كيموس [٣]، ويجعل الغليظ منها سوداء [٤]، والزبد صفراء، ويحول الخام منها إلى البلغم والمطبوخ إلى الدم، ويطرح الفضلة إلى المثانة ثم يصبها من باب الكبد إلى العروق، ثم يطبخه هنالك مرة ثالثة ويخرج المخلف منها عرقًا ويمر المواد الخالصة النقية منها من العروق الغلظية إلى الجداول ومن الجداول إلى السواقى ومن السواقى إلى الشرايين الدقيقة المعقدة ومن منفذ ضيق إلى أضيق منه ولا يزال يمرها كذلك من المنافذ الدقيقة حتى يصبها من فويهات الشرايين على الأعضاء الظاهرة ومما يدعو إلى العجب ويبعث على الاندهاش أن يأخذ كل عضو من الغذاء ما له بدون خطأ وإن يصيب كل جزء ما يناسبه ويوافق طبيعته ووظيفته، ثم تطبخها الأعضاء هنا مرة رابعة لتتشكل بشكل عضوى جديد وبذلك يتوفر بدل ما يتحلل من الجسم لاستمرار البقاء الشخصى ثم يمنح ما يزيد عن الحاجة النمو، والله عز وجل غنى عن كل هذا، إن يشأ يحيى بلا غذاء آلاف السنين ويمنح الجسم نموه الكامل دون احتياج إلى غذاء، ثم يصير الفضلة الباقية منيا ويوزعه إلى الصلب والترائب ويخلق فيه قوة العقد والانعقاد ويؤلف بين الرجل والمرأة ويعطى المرأة الشوق الجامح إلى الرجل مع ما تقاسى من مشاق الحمل وصعوبات الوضع ويدبر الأسباب لحفظ النوع البشرى من الانقراض ويأمر الرحم بالجذب ثم يأمرها بالإمساك ثم يطبخه ويجعله مضغة ثم ينبت فيها

(١) عبارة عن المواد الغذائية التى تتجمع على شكل كتلة عجينية فى المعدة قبل أن تدخل الأمعاء الدقيقة.

(٢) اسم لشريان ممتد من البطن إلى الكبد.

(٣) الخلاصة الغذائية وهي مادة لينة بيضاء صالحة للامتصاص تستمدها الأمعاء من المواد الغذائية في أثناء مرورها بها.

(٤) عند القدماء أحد الأخلاط الأربعة في الجسم وهي: الصفراء، والدم، والبلغم، والسوداء.

الأعضاء ويخلق فيها أنواعًا من العظام ويكسو العظام لحمًا ويكسو اللحم جلدًا واقيًا ويشق فيها مئات من الشرايين ويوجد فيها آلافًا من العجائب ثم يصور فيها كما يشاء ثم ينفخ فيها الروح بقدرته ويوفر فيها الرزق لهذا العاجز المسكين فى ظلمات ثلاث ويخلق فيه القوة للخروج ويمسكه لوقت معلوم ثم يحركه للخروج فى أجل مسمى ويسهل السبيل للخروج إلى هذا العالم الناطق ثم ينبته نباتًا حسنا وينوره بالعقل والفهم، فتبارك الله أحسن الخالقين، وهو غنى عن كل هذا إن يشأ يخرج من الحجر الأصم ملايين من البشر ولو شاء لأمطر بلايين من الإنسان من السماء، ولئن سألتهم من يبدع هذا كله فسيقولون الله فقل أفلا تتقون.

آمنا بالله وحده آه ، آه، أيها المتفلسف المسكين ألم يأن لك أن تؤمن وتوقن بأن هذه التدبيرات المحكمة وتلك التصرفات البديعة لا يمكن أن تصدر إلا من ذلك الحكيم العليم ـ جل جلاله وعم نواله ـ فبأى حديث بعده يؤمنون. لقد ذكر الفقير ـ غفر الله تعالى لـه ـ هذه الكلمات الموجزة ـ بقدر ما دعت إليه الحاجة هنا فى شرح هذه الآية الكريمة وتفسيرها[1]، مع ملاحظة أن هذا كله أقل من قطرة بالنسبة إلى بحره العظيم الذى لا حد له، وإلا فكل ما كان من الأزل إلى الآن وما سيكون من الآن إلى الأبد بل إلى أبد الآباد شرح وتفسير لهاتين الكلمتين الموجزتين «يدبر الأمر» وكل ذلك مندرج تحت مفهومهما، سبحانه ما أعظم شأنه.

فليتأمل المسلم، أن هذه الأمور العظيمة وتلك الحكم البديعة التى تتجلى ليل نهار فى جسم الإنسان ـ وقد أشرنا إلى بعضها إشارة عابرة ـ إنها لقطرة صغيرة من بحره العظيم اللامحدود وصحرائه اللامتناهية، ومع ذلك لا تستطيع ملايين بل بلايين النفوس الناطقة الاطلاع على شىء منها بله الإحاطة. فإن اطلع واحد من الآلاف بعد سنوات من البحث والدراسة، والمجهودات المتواصلة المضنية على شىء عجز عن إصلاح عضو إن مرض، أو تقويم جزء إن عطل، فمن

---

(١) ومن أراد مزيد الاطلاع فى هذا الباب فعليه برسالة الإمام الغزالى حجة الإسلام المسماة «الحكمة فى مخلوقات الله» باب فى حكمة خلق الإنسان، محمد جلال رضا.

أجهل[1]، ممن يسند هذه التدبيرات المحكمة اللامعدودة إلى النفس الناطقة الجاهلة العاجزة؟ فما أحسن المدبر وما أجمل المعتقد ضعف الطالب والمطلوب.

سبحان الله! إن كان هذا حقًا وكان ربنا تبارك وتعالى فى معزل عن هذه الأمور بالكلية ـ كما يدعى هذا الفيلسوف ـ فيا أسفاه على جهالته، وحماقته، فأقول له أيها الفيلسوف ! ألم تعبد نفسك الناطقة التى تحمل مثل هذه القوة الخارجة وتقوم بإدارة الشئون الجسمانية الجليلة بذاتها، وربنا المستعان على ما تصفون.

وهذا أحد الكفريات الجلية في قول زيد ثم أقول، إنه لا يخفى على المتأمل العارف والمناظر المنصف أن جو الكلام وسياقه ليوحيان بل يتبادر ويتجلى منه مفهوم خالقية العقول ومما يقوى هذا التبادر ويؤيده هو ما ذهب إليه القائلون بالعقول من خالقيتها.

فإن كابر مكابر وشكك فى هذا التبادر ـ إذا الخرقاء لا تعدم الحيلة ـ فلنصرف النظر عن التبادر على سبيل التنزل فلا مفر عن تعادل[2] الكفتين وتساوى الطرفين

---

(١) ولا عجب من سفهاء الفلاسفة ونظراء الهنبقة حيث إنهم يسندون تصوير الجنين وغيره من الأفعال المتقنة الحكيمة إلى النفس الحيوانية بل ولا يستحيون من إسنادها إلى القوة غير الشاعرة، وقد صدق عليهم وأمثالهم ما على مثلهم يعد الخطأ.

(٢) أقول: سأوضح هذا التبادر من كلامه بمثال سيكفى المنصف ـ إن شاء الله تعالى ـ ولا عبرة بالمتعسف إذ المتعسف لا تكفيه الأسفار، فمثلا لو قال أحد، إن الناس فى علاقتهم بالقرآن الكريم على أنواع، منهم من يستنبط الأحكام الشرعية بملكاتهم الاجتهادية ومنهم من يفسره بحزم واحتياط ومنهم من يقرأه ويتلوه ومنهم من يسمع ومنهم من يتعلم ويعلمه وجميعهم لهم علاقة صادقة وصلة قوية بالقرآن الكريم ومن الناس من ليس لهم شىء من هذه الصلات الطيبة إلا علاقة العداوة، والتكذيب مثلا مصنف المنطق الجديد، والمجوس، والهندوس، والنصارى، واليهود.

أجب بصدق وأمانة، ألا يستفاد من سياق هذا الكلام إن القائل قد جعل مصنف المنطق الجديد من مكذبى القرآن الكريم وأعدائه، وإن كان هناك احتمال أن نصرف علاقة التكذيب والعداوة إلى ما ذكر بعد «مصنف المنطق الجديد» من المجوس والهندوس والنصارى واليهود وأن نتصور لمصنف «المنطق الجديد» علاقة ذهنية أخرى غير السابقة واللاحقة مثل التكهن أو التجارة ونعتذر إلى القراء الكرام عن التمثيل على هذا النحو الخاص وما أردت منه إلا تبيين الحق إذا الإنسان فى كلام الخصم دائمًا يميل إلى المعنى الظاهر المتبادر وقلّما يلتفت إلى الاحتمالات البعيدة ليعذر خصمه فإذا قارنا بين هذا المثال وبين كلام زيد فلن نجد بينهما من فرق فى سوق الكلام وصياغته فإذا أفادت صياغة هذا المثال على هذا النحو ما قد رأينا من المعنى المتبادر منه فلا شك إذ إن ما يتبادر من سياق كلامه هو خالقية العقول، والله الهادى . سلطان أحمد خان غفر له.

فإن تنازلنا عنه أيضًا فلا محيد البتة عن الإيهام الشديد والإيحاء القوى بخالقية العقول، ولا يخفى أن مجرد الإيهام فى مثل هذا المقام الخطير ممنوع وحرام شرعًا ـ كما سيأتى ـ.

ومهما يكن من أمر فإن كان مقصوده من كلامه هذا [(١)] فكفره جلى بين مستغن عن أى بيان. قال الله عز وجل : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣].

وقال المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقال ـ جلت عظمته ـ : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ [(٢)] وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال الحق جل جلاله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]، ولقد أشار المولى عز وجل إشارة موجزة إلى الأفلاك والعناصر والجمادات والحيوانات والنباتات والآثار العلوية فى سورة لقمان فقال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١] صدق الله سبحانه وتعالى.

والجدير بالذكر أن هذا المعنى ـ أعنى تفرد المولى ـ تعالى شأنه ـ بالخلق كان راسخًا ومستقرًا فى أذهان الناس عامة حتى فى عقول المشركين العرب قال جل ذكره : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان ـ ٢٥، الزمر : ٣٨].

---

(١) كما هو الظاهر المتبادر وإن أنكر المكابر.

(٢) المفهوم من الخلق هنا، الخلق من المادة كخلق الإنسان من النطفة، والمستفاد من الأمر هو إيجاد الله تعالى شيئًا بأمره «كن» كإيجاد الأرواح.

ولم تكن هذه السخافة الجلية والخرافة العلية فى يوم من الأيام إلا من نصيب هؤلاء السفهاء الفلاسفة التى جعلتهم أمراء الحمير «قاتلهم الله أنى يؤفكون».

ها نحن نسلم أن زيدًا لم يرد من كلامه هذا المعنى ولم يذهب إلى خالقية العقول بالذات وموجديته بالاستقلال، قصارى ما قصده ونهاية ما أعتقده أن العقول شروط ووسائط للخالق كما قد يمكن أن يستفاد من كلام زيد« سواء كانت لها علاقة الخلق أو كانت واسطة فى الخلق» وهذا القدر لا مفر عن تسليمه لأنه قد أقر بذلك بل وأكثر من ذلك فى رسالة له حيث إنه جعل هذا المعنى مذهبًا محققًا واختاره مشربًا صافيًا، وهذا (جعل العقول وسائط) أيضًا كفر واضح وارتداد فاضح وكفى به كفرًا وارتدادًا لأن هذا المذهب يستلزم لزومًا بينًا أن القادر ذا الجلال الغنى المتعال تبارك وتعالى غير كاف للخلق والإيجاد وأنه محتاج ومفتقر إلى غيره فى الوساطة والآلية وبذلك يكون قد اعترف وأقر إقرارًا صريحًا أن القدير المجيد ناقص فى الفاعلية وأن العقول العشرة متممة ومكملة له تعالى شأنه، أى كفر أفحش من هذا؟ وليس هذا كفرًا واحدًا فحسب بل مستنقع لكفريات متعددة، فعجز البارى ـ تعالى شأنه ـ كفر، وافتقاره إلى الغير كفر ثان، ونقصه كفر ثالث واستكماله بالغير كفر رابع، وعدم خالقيته بالاستقلال كفر خامس:

فكفر[١] فوق كفر فوق كفر ... كأن الكفر من كثر ووفر

كماء[٢] آسن فى نتن دفر ... تتابع قطره من ثقب كفر[٣]

---

(١) فيه توجيهان، الأول أن «مَن» بما بعده متعلق بالشطر الآتى وخبر كأن قوله «كماء» فمن على هذا للتعليل، والثانى أنها هى الخبر بعد تعلقها «بمأخوذ» أو نحوه واللام فى الكفر للعهد أى كأن كفره هذا مأخوذ من الكثر والوفر بإسقاط بعض الحروف منها.

(٢) ماء آسن، متغير الطعم والرائحة، النتن، نتن الشىء نتنا ونتانة خبثت رائحته، دفر ـ الرائحة الكريهة المنبعثة من الإبط.

(٣) كفر بالفتح الجبل العظيم، قطر بالفتح جمع قطره، التتابع، التواصل.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ثم أقول لو استقصيت وتتبعت لوجدت أن إيحاءات تعدد الخالق من كلام زيد ما زالت متجلية، فتقرير «القول الوسيط» وتمثيله بالشمس والقمر وترديده قيد «بالذات» مراراً وتكراراً، إن هذه القرائن كلها توحى بوضوح أن زيداً إنما ينفى عن العقول الخالقية الذاتية دون الخالقية المستفادة، وهذا القدر (الخالقية المستفادة) كاف لصدق كلمة الخالق «على العقول فى الواقع ونفس الأمر، وإلا فالعلم، والسمع، والبصر، والحياة بل وجود العالم نفسه منتف بذاته وخاص بحضرة الحق جل جلاله، بالرغم من ذلك قد أسند العلم والسمع والبصر والحياة والوجود إلى غيره فى القرآن الحكيم فقال المولى ـ جلَّ وعلا ـ بالنسبة للعلم: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٦٨]، وقال جل جلاله عن نسبة السمع والبصر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً﴾[سورة الإنسان، آية٢].

وقال جل شأنه عن الحياة ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩]، وقال المولى جل وعلا عن الوجود ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٤٧] وهذه القضايا حقة وصادقة بلا ريب، ولا شك أن حقائق الأشياء ثابتة ألا ترى أن استنارة القمر بنور الشمس ـ كما

اعتقد زيد ـ لا تعارض قول الله جل جلاله الذى مثل به زيد ﴿جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾[1]، (فالقمر نور مع أنه مكتسب من الغير).

ومن الواضح بمكان أن لفظ المجاز كما يقابل الحقيقة يقابل كذلك الذاتى غير أن الذاتى لا يكون إلا حقيقيًا دائمًا وأنه لا يفارق الحقيقة قط. فملكنا ملك مجازى أى حاصل بالعطاء الإلهى غير نابع من ذواتنا وليس معنى ذلك أنه باطل فى الحقيقة ونفس الأمر قال تعالى : ﴿فهم لها مالكون﴾ [يس ـ ٧١] وقال عز وجل: «وما ملكت أيمانهم﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وبناءً على هذا عد ﴿واسأل القرية﴾ من المجاز لأن العلم والسماع والقدرة على الجواب التى يصح بها الاستفسار الحقيقى متنفية هنا وبالعكس من ذلك ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ حقيقة دونما أية ريبة لأن العلم والسمع والقدرة متواجدة هنا يقينا وإن كان مستمدة من المولى جل جلاله.

ولا يخفى على عاقل أن الحقيقة إنما تتوقف على الثبوت فى الواقع فحسب

---

(١) هذه الآية الكريمة نص صريح فى أن القمر مستنير أولا فى ذاتها بأى طرق كان ثم ينير العالم وهو الراجح من جهة العقل أيضًا وإليه جنح المحققون منهم الإمام الرازى خلافا لمن ذهب أن القمر إنما ينقل ضوء الشمس فحسب بدون استنارته منه كما ظنه بعض الفلاسفة.

ولكن هل القمر مظلم فى حد ذاته ويستنير بضوء الشمس؟ أقول أما هذه القضية فلا ننفيها لعدم ورود السمع بتكذيبها ولا نقطع بثبوتها لعدم قيام البرهان على تصويبها.

والدوران ليس فى شيء من البرهان وإن ما زعموا أنه بديهى ثابت بالحدس كيف ولا قاطع بإبطال قول ابن الهيثم في الأهلة وما ذكروه من حديث الخسوف فيجوز أن يكون ذلك لأن القادر ينزع منه النور متى شاء من دون أن تكون الحيلولة هى الموجبة له والمعية لا تفيد العلية بل هذا الذى لما ذكرنا هو المستفاد من ظواهر الأحاديث وقد رأينا كذبهم فى كسوف وقع على عهد رسول الله ﷺ لعشر خلون من شوال (العاشر من شهر شوال) مع أن قاعدتهم تقتضى بأن لا يقع إلا آخر الشهر إذ المقارنة لا تكون إلا إذ ذاك فلما ظهر لنا انتقاض الدوران فى الكسوف عسى أن يظهر أيضًا فى الخسوف على أن فى الباب احتمالات آخر لا يتكافئها الدليل وبالجملة ما لم يخبر عنه تراه مضطربًا هكذا إلى يوم القيامة فاستفده فإنه مهم نعم أفاد الإمام عبد الوهاب الشعرانى فى «ميزان الشريعة الكبرى» إجماع أهل الكشف على أن نور القمر مستفاد من نور الشمس فمن هذا الوجه نقول به والله تعالى أعلم (المؤلف قدس سره).

بصرف النظر عن أن يكون ذلك الوصف ذاتيًا أو مستفادًا من الغير ولا يخفى على أى عاقل ذلك التفاوت الحاصل فى استعمال الكلمة «تعرف» فى هذا الشعر:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته   الْعُرْبُ تعرف من أنكرت والعجم

حيث إن المعرفة استندت إلى البطحاء أولا وهو مجاز وإلى العرب والعجم آخرًا وهو حقيقة.

لقد بعد عن المحجة البيضاء، إن الحقيقة لا تستلزم الذاتية وإلا لزم انتفاء خلق الأشياء حقيقة عن الحق عز وجل بل يستحيل ذلك عليه تعالى - ولن تكون نسبة الخلق إليه - تعالى شأنه - إذا إلا وهما مجازيًا، إذ الخالق إذا لم يفد الوجود حقيقة (بذاته) فلم يكن خالقًا فى الواقع. فلو كان الأمر كذلك لم يصدق قوله تعالى: ﴿قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ [طه:٥٠]. وقس على هذا شنائع أخرى.

فلا شك إذا إن مثل هذا المجاز لا يتعارض مع إطلاق الحقيقة وصدقها كما لا يتنافى مع ثبوت الوصف الواقعى، ومن هنا تبين جليًا أن تقرير زيد ينادى بأعلى صوت أن العقول العشرة إنما تنفى عنها الخالقية الذاتية فحسب وإلا فهى خالقة فى الواقع للعالم مثل القمر الذى ينير الأرض.

- وإن كانت هذه الخالقية مستمدة ومستفادة [1] من الحق عز وجل - كما يستمد

(١) وأما أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير» [آل عمران:٤٩]، فلا يخفى على ذى لب أن فيه تبديل الجسم الطبيعى دون إيجاد الجسم التعليمى بل ذلك أيضًا أعنى زوال أبعاد وحدوث أخرى إنما هو على طريقة الحكماء القائلين بالكم المتصل، وأما المتكلمون فلم يحدث عندهم فى الطين شىء لم يكن ولم يزل عنه شىء قد كان وإنما انتقلت الجواهر الفردة من طول إلى عرض أو بالعكس مثلا كما صرحوا به فى الشمعة وهذا هو معنى تصوير الملك الموكل بالرحم الجنين فيها فليس إلا إبداء هيئات لأجزاء الجسم لا إيجاد لحم أو شحم أو عظم والله تعالى أعلم (المؤلف قدس سره).

القمر من أنوار الشمس سبحانه وتعالى عما يشركون. **وخلاصة القول:** إن الاعتقاد بانعزال البارى ـ تبارك وتعالى ـ وانقطاعه عن تدبير أمر من الأمور أو تصرف شأن من الشئون أو إسناد خلق جوهر من الجواهر إلى غيره تعالى شأنه من الكفريات الخالصة التى لا يتطرق إليها من ريب ولا يحوم حولها من شك سواء قال بأنها متممة لإيجاد البارى تعالى أو لم يقل وهذا من أوضح ضروريات الدين وأجلاها بل وأميزها من بينها وجلاءها مغن عن أى بيان.

تنبيه ـ ولا يستبعد من زيد الفيلسوف أن يلجأ إلى بعض التحايلات الباردة فى خضم الوساوس المقلقة والخواطر المتشتتة المزدحمة عليه فيقول «إنما قلت هذا كله على طريق الفلاسفة دون اعتقاد منى فى شىء من ذلك».

أقــول: صحيح ما يقال لا تعدم الخرقاء الحيلة، وواضح تمام الوضوح أنه ما كانت هناك حالة إكراه واضطرار تدعو إلى كتابة هذه الأوهام الشيطانية. ومجرد الإتيان بكلمة الكفر ـ دون إكراه ـ كفر، وإن لم يكن بذلك اعتقاد فى القلب، ولقد صرح معظم العلماء فى هذا الباب بأنه لا يكفر لدى الخلق فحسب بل يكفر عند الله أيضًا لأنه متلاعب بالدين وعابث بعظمته ـ والعياذ بالله تعالى ـ.

فقد نص الإمام العلامة فقيه النفس فخر الدين الأوز جندى ـ رحمه الله تعالى ـ فى «الخانية» رجل كفر بلسانه طائعًا وقلبه على الإيمان يكون كافرًا ولا يكون عند الله مؤمنا وفى الحاوى من كفر باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان فهو كافر وليس بمؤمن عند الله . «وفى مجمع الأنهر» وجواهر الأخلاطى وهذا لفظ المجمع من كفر بلسانه طائعا وقلبه مطمئن بالإيمان فهو كافر ولا ينفعه ما فى قلبه لأن الكافر يعرف بما ينطق به من الكفر فإذا نطق بالكفر كان كافرًا عندنا وعند الله تعالى، وفى «البحر الرائق» ، **والحاصل** أن من تكلم بكلمة الكفر هازلا أو لاعبًا كفر عند الكل، ولا اعتبار باعتقاده ومن تكلم بها خطأ أو مكرها لا يكفر عند الكل ومن تكلم بها عالمًا عامدًا كفر عند الكل.

وفى «الطريقة المحمدية» ، و«الحديقة الندية» التكلم بهما يوجبه (الكفر) طائعًا من غير سبق اللسان عالمًا بأنه كفر (كفر) بالاتفاق وكذا الفعل ولو هزلا ومزاحًا بلا اعتقاد مدلوله بل مع اعتقاد خلافه (بقلبه) فإنه يكفر عند الله تعالى أيضًا فلا يفيده (فى عدم الكفر)اعتقاد الحق (بقلبه)لأن ذلك جعل كفرًا فى الشرع فلا تعمل النية فى تغييره إلى آخره ملخصًا.

أما زعمه بأن قوله إنما هو على طريق الفلاسفة فأقول صدق فيما قال ولسنا بقائلين أبدًا إن قوله هذا على طريقة المسلمين فإن كلمة الكفر أيا كانت إنما تقال فى الأغلب على طريقة من طرق الكفار دون المسلمين ـ والعياذ بالله تعالى ـ فهذه الحيلة لن تنجيه من حكم الكفر ولن تنقذه من وعيده الشديد حاشا وكلا فليسأل زيد هنا إذا كان يعتقد أنها من الكفريات فهل فى كلامه حرف يشير إلى رفضه وبراءته منها وهل هناك من كلمة يشم منها رائحة الكراهية والتنكر لها، لقد حاد عن الحق وأخطأ الصواب، لن تعثر أبدا على حرف يوحى بأنه ناقل أو حالك عن غيره بل على العكس من ذلك تجد أنه أدرج تحت لفظ التحقيق، وفى «القول الوسيط» أشاد بهذه المضامين إشادة فجاء بكلمة «هذا التحقيق» وبهذه الملاحقة يكون قد افتضح عواره وانكشفت سوأته، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

حتى لقد صرح أئمة الدين بل وقد نص منقح المذهب (الحنفى المذهب) حضرة الإمام الربانى أبو عبد الله محمد بن حسن الشيبانى رضى الله عنه أيضًا فقال من قال بلسانه المسيح ابن الله ولم يأت بشىء يدل على حكاية قول النصارى لن يصدق وإن ادعى الحكاية ويحكم ببينونة امرأته ولقد نقل العلامة بدر الدين رشيد الحنفى فى رسالة «الألفاظ المكفرة» عن الفتاوى الصغرى وغيرها فقال لو قالت للقاضى سمعت زوجى يقول المسيح ابن الله فقال إنما قلت حكاية عمن يقوله فإن أقر أنه لم يتكلم إلا بهذه الكلمة بانت امرأته، وفيها أيضًا قال محمد إن شهد الشهود أنهم سمعوه يقول المسيح ابن الله ولم يقل غير ذلك يفرق القاضى بينهما

ولا يصدقه، ـ سبحان الله ـ لما أفتى العلماء بالبينونة فى هذه المسألة التى فيها احتمال كبير لإتيان الزوج بلفظ الحكاية وربما لم تسمعه المرأة أو الشهود.

فأنى ينجو من حكم الكفر شخص يلطخ كتابه بنجاسة الكفر الصريح ويحليه بحلية هذا التحقيق؟ نسأل الله العافية لقد سئل سيدنا الإمام الأجل عالم المدينة مالك بن أنس رضى الله عنه عن شخص قال بأن القرآن مخلوق فقال مالك كافر اقتلوه فقال إنما حكيته عن غيرى قال إنما سمعناه منك ففى «الإعلام بقواطع الإسلام» سأل رجل مالكًا عمن يقول القرآن مخلوق فقال مالك كافر اقتلوه فقال إنما حكيته عن غيرى فقال مالك إنما سمعناه منك.

بل لقد صرح علماء الدين المتين بأن ذكر هذه الكفريات أو أمثالها حرام وغير مشروع وإن كان مقترنا بلفظ الحكاية والنقل ويستحق الحاكى ـ وإن كان مصرحًا بالنقل ـ العقاب والتأديب إلا إذا كان هناك غرض محمود ومهم عند الشرع مثل تحذير الخلق أو إظهار الحق أو إبطال الباطل أو لأجل أمور الدعوى والشهادة حتى يقتل قائلها أو يعاقب وغيرها من الدواعى الدينية الضرورية.

فإذا توفرت هذه الضرورات أو أمثالها واقترنت الحكاية بالتبرى منها والاستنكار لها والكراهية منها فلا حرج حينئذ.

قال الإمام العلامة القاضى عياض المالكى ـ قدس سره ـ فى كتابه «الشفاء» وقال العلامة شهاب الدين أحمد الخفاجى الحنفى ـ رحمه الله تعالى ـ فى شرحه «نسيم الرياض» أما ما ذكرها على غير هذا الوجه من الرد والإبطال ونحوه مما مر على وجه الحكايات والخوض فى قيل وقال وما لا يعنى فكل هذا (المحكى) ممنوع (غير جائز شرعًا) وبعضه أشد في المنع والعقوبة من بعض فما كان من قائله الحاكى له (عن غيره) على غير قصد ومعرفة بمقدار ما حكاه ولم يكن عادته (وإنما وقع منه نادرًا) ولم يكن الكلام الذى حكاه من البشاعة حيث هو ولم يظهر على حاكيه استحسانه واستصوابه زجر (وبخ) ونهى عن العود إليه وإن قوم ببعض

الأدب فهو مستوجب له وإن كان لفظه مـن البشاعة حيث هو كان الأدب أشد إلى آخره ملخصًا».

أقــول: ولم لا نحكم بالحرمـة فيما نحن فيه؟ وقد صـرح العلماء بأن رواية الحديث الموضوع بغـير رد واستنكار محـرمة شرعًا وهذا ما أخـذ به على الحافظين المعاصرين «أبى نعيم» وابن مدنة» ولايخرج الراوى عن عهدته ولا تبرأ ذمته بمجرد سرد الرواية كـما صرح به الشمس الذهبى وغـيره من أئمة الشأن فلمـا كان الحكم هنا بهذا القـدر من الشدة بالرغم من خـفته نسـبيًا مع مـا نحن فيه، فـإن المئات من الأحاديث الموضوعـة مضامينها صحـيحة ونافعة ألا تحرم حكاية هذه الاخـتلافات الملعـونة المهلكة؟ وهل يحل ذكر هذه الأوهام المضـادة المتنافـية تماما مـع أصول الإ سلام؟ وهل يشرع نقل هذه السموم الفتاكة الموبقة؟ نسأل الله العافية.

بل لقد استنكر كثير من الأئمة الناصحين ـ رحمه الله تعالى أجمعين ـ وكرهوا إشاعة هذه الخرافات وأمثالهـا بل الأخف منها بكثير ولو على سبيل الرد والإبطال وهذا أحد الأسباب التى دفعت العلمـاء إلى شدة الطعن والرد على كلام المتأخرين من العلماء كما فصل بعضه الفاضل على القارى فى شرح الفقه الأكبر حتى قاطع سيدنا الإمام الهمام عمـاد السنة أحمد بن حنبل رضى الله عنه سيدنا العارف بالله إمام الصوفـية حارث المحاسبى رضى الله عنه، وقـال ويحك ألست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ألست تحـمل الناس بتصنيـفك على مطالعة البدعـة والتفكر فى الشبهة فيدعوهم ذلك إلـى الرأى والبحـث والفتنة، ولا شك أن الرد على المبتدعين من أهم الفرائـض إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وها هو الإمام أحـمد نفـسه يؤلف كـتابا فى الرد على الجـهمـية وفـى حديث عند الخطيب وغـيره، أنه ﷺ قـال : «إذا ظهرت الفتن أو قال البدع وسب أصحابى فليظـهر العالم علمه فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلا».

والحاصل: أنه ما من شك أن كلتا العبارتين كلمتا كفر صريح وليس هناك مبرر مقبول لإدراجهما فى كتبه، والله المستعان.

الرد على القول الثانى والثالث والرابع

ونفس الحكم الذى سبق بيانه مفصلا فى القول الأول عائد فى هذه الأقوال أيضًا حيث إنه قد أقر فيها بقدم الهيولى، والصورة الجسيمة والصورة النوعية والعقول العشرة وبعض النفوس وهذا كله من الكفريات بدون ريب فقد نص أئمة الدين أن من اعتقد غير الله أزليا فقد كفر بإجماع المسلمين.

ففى «الشفا» و«نسيم الرياض» من اعترف بإلهية الله تعالى ووحدانيته لكنه اعتقد قديمًا غيره (أى[1] غير ذاته وصفاته إشارة إلى ما ذهب إليه الفلاسفة من قدم العالم والعقول) أو صانع للعالم سواه (كالفلاسفة الذين يقولون إن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد) فذلك كله كفر (ومعتقده كافر بإجماع المسلمين) كالإلهيين من الفلاسفة والطبائعين إلى آخره ملخصًا.

وقال يقطع بكفر من قال بقدم العالم أو بقائه أو شك فى ذلك على مذهب بعض الفلاسفة (ومنهم [2]من ذهب لغيره وقد كفرهم أهل الشرع بهذا لما فيه من تكذيب الله ورسله وكتبه) إلى أن قال فلا شك فى كفر هؤلاء قطعًا إجماعًا وسمعًا، إلى آخره ملتقطًا.

---

(١) أقول توضيح لا توجيه فإن صفاته سبحانه وتعالى ليست عندنا غيره كما هى ليست عينه (المؤلف قدس سره).

(٢) أقول، أو تكون البعضية راجعة إلى الشك فهى إشارة إلى ما حكى عن جالينوس أنه قال فى مرضه الذى توفى فيه لبعض تلامذته اكتب عنى أنى ما علمت أن العالم قديم أو محدث وأن النفس الناطقة هى المزاج أو غيره قد طعن فيه أقرانه بذلك حين أراد من سلطان زمانه تلقيبه بالفيلسوف ـ ذكره فى شرح المواقف ـ أقول، إن كان الطعن تردد الأخير فهو بذلك حرى وجدير وإلا فمن العجب أن معتقد القدم يسمى فلسفيًا دون الشاك مع أن جهل ذلك مركب وجهل جالينوس بسيط(*) فإن كان مثل هذا الجهل لا ينافى حكمة الحكم فالبسيط أولى به إلا أن يقال إن الفلسفى هو المتناهى فى الخبائة وذلك فى المركب (المؤلف قدس سره).

(*) الجهل البسيط عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالمًا والجهل المركب عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، المعجم الوسيط، محمد جلال رضا.

ويقول العلامة ابن حجر الهيثمي في «الإعلام»، اعتقاد قدم العالم أو بعض أجزائه كفر كما صرحوا به وفيه أيضًا «من المكفرات القول الذي هو كفر سواء أصدر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء فمن ذلك اعتقاد قدم العالم» إلى آخره ملخصًا.

وفي «طوالع الأنوار من مطالع الأنظار»، القول بالذات القديمة كفر وفي «شرح المواقف»، إثبات المتعدد من الذوات القديمة هو الكفر وفي «شرح الفقه الأكبر»، من يؤول النصوص الواردة في حشر الأجساد وحدوث العالم وعلم الباري بالجزئيات فإنه يكفر.

وفي «البحر الرائق» نقلا عن «جمع الجوامع» وشرحه من خرج ببدعة من أهل القبلة كمنكري حدوث العالم فلا نزاع في كفرهم لإنكارهم بعض ما علم مجيء الرسول ﷺ به ضرورة إلى آخره مختصراً. وفي «رد المحتار» عن «شرح التحرير» للعلامة ابن الهمام، لا خلاف في كفر المخالف في ضروريات الإسلام من حدوث العالم وحشر الأجساد ونفي[1] العلم بالجزئيات وإن كان من أهل القبلة المواظب طول عمره على الطاعات وكذلك نقل الإمام أبو زكريا يحيى النووي في «الروضة»، والفاضل السيد أحمد الطحطاوي في هامش «الدر المختار».

ومهما يكن من أمر فإن كتب الأئمة ومؤلفاتهم زاخرة بهذه النصوص وأمثالها ولا مطمع في الاستقصاء.

وقد اتفقت كلمة المبتدعين أنفسهم على هذا الحكم كما يرشدك إليه قوله،

---

(١) أقول هكذا وقع في الكتاب والصواب إسقاط النفي فإنه هو الكفر إجماعا والضروري هو الإثبات وكأنه رحمه الله تعالى لما أراد تمثيل مخالفة الضروريات وكان إليه سبيلان أحدهما بتعديد المخالفات والأخرى بذكر الضروريات فالتبست في البيان إحداهما بالأخرى فسلك الأخرى في الأولى والأمر واضح فليتنبه (المؤلف رحمه الله تعالى).

بإجماع المسلمين، قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى فى «المحصل»، اتفق المتكلمون [١]على أن القديم يستحيل إسناده إلى الفاعل[٢].

وقد اجتمعت كلمة أهل الملل عامة على حدوث جميع الأجسام مع أعراضها حتى اليهود والنصارى أيضًا يتفقون فيه معنا، ففى «شرح المواقف»، الأجسام محدثة بذواتها الجوهرية وصفاتها العرضية وهو الحق وبه قال المليون كلهم من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس. ولا شك أن إيراد زيد هذه المعانى الكفرية فى مواطن الاستشهاد والاستناد وإطلاقه عليها اختيار المذاهب وتحقيق المشارب لدليل صريح على اطمئنانه إليها وقبولها منه وإن تنازلنا عن هذا وافترضنا أنه لم يرض بها فبما أنه أورد هذه المعانى الفاسدة بغير إكراه قد استحق حكم الكفر وتذكر كل ما قدمنا من الكلام على القول الأول تجد هنالك ما فيه الغناء وعليه المعول.

مستنقع الضلالات

القول الخامس

هذا القول خليط عجيب ومعجون مركب من ضلالات عديدة وجهالات كثيرة بل هذا القول معجون الفلاسفة قرة العيون. إن زيدًا المسكين قد آمن بأوهام الباقر

---

(١) هو لفظ يعم جميع النظار من أهل القبلة المقتدرين على إثبات عقائدهم التى دانوا بها الله تعالى بإيراد الحجج وإدحاض الشبه سواء كانوا مصيبين كمعشر أهل السنة والجماعة ـ حفظهم الله تعالى ـ أو خاطئين كمن عداهم كما صرح به فى المواقف وغيرها فالحاصل «اتفق المسلمون».

(٢) يعنى الفاعل المختار إذ لا فاعل موجبًا ـ عندنا ـ وهذا هو الذى قالوا إنه أجمع عليه المتكلمون أما أن القديم لا يمكن إسناده إلى الفاعل مطلقًا حتى إلى الموجب لو كان فمسلك خاص للإمام الرازى لم يوافقه عليه كثيرون حتى قالوا : إن القول بقدم العالم إنما ساغ للفلاسفة لقولهم بالفاعل الموجب ولولا ذلك وأمنوا بالفاعل المختار لأذعنوا بحدوث العالم عن آخره وكذا إيجاب المسلمين حدوث كل مخلوق لقولهم بالفاعل المختار ولولا ذلك لقالوا بالقدم، قلت المقصود نفى الإجماع على التعميم وهو حاصل وإن كان فى الكلام كلام والله سبحانه وتعالى أعلم (المؤلف قدس سره).

(باقر داماد الشيعي فلسفي النزعة) واطمئن إليها وصدقه في أباطيله المخيلة واستطاب تلك الكفريات واستحلالها، وقد غفل عن تلك الشناعات العظيمة الهائلة التي تستتبع هذه الأوهام.

فأقول وبحول الله أصول، أولاً يلزم على هذا الزعم قدم جميع الأنواع بلا استثناء وذلك حيث إن مجرد الإمكان الذاتي لما كان ملاك الفيضان في الطبائع المرسلة والإمكان الذاتي ـ أي كونه في محيط القدرة الإلهية ـ أزلي بلا شك، وإلا لزم الانقلاب، ولما كان من المسلمات التي لا مراء فيها ألا يخل في جانب المبدىء ـ تبارك وتعالى ـ ومن هنا وجب أن يكون كل نوع قديمًا أزليًا، وهذا الزعم يستتبع بالتالي جميع الأصول الفلسفية الباطلة من قدم الهيولى وقدم الصورة الجسيمة وقدم الصورة النوعية وقدم جميع الأشخاص المندرجة تحت الأنواع وقدم بقية الأفراد المنتشرة، ولا شك أن قدم الأنواع والأشخاص يستلزم قدم الأعراض اللازمة على التفصيل المشار إليه كما لا يخفى.

فها هي الأصول الفلسفية المزخرفة قد استتبع بعضها البعض حتى تجمعت كلها وكان قد اكتفى الفيلسوف المبتوع بقيد المادة والمدة، ومما زاد الطين بلة من المتفلسف التابع أنه أضاف صراحة بأن مجرد الإمكان مستلزم للفعلية هيهات ولا عجب في ذلك من المتبوع حيث إنه من أذناب الفلاسفة ومحبي السفسطة من قديم ـ ومن لم يستغن بالقرآن فلا أغناه الله ـ إنما العجب كل العجب من هذا التابع الذي يدعي التسنن ثم يركب هذا التلون والتفنن نسأل الله الثبات على الإيمان والسنة.

ثانيًا: ومما هو أشد من ذلك وأقبح مما سبق أن قوله هذا قد استلزم انحصار القدرة الإلهية في الأنواع الموجودة بالفعل فقط أما الأنواع التي لم تخلق بعد فإن المولى عز وجل لا يكون قادرًا عليها بالتالي؛ إذ لو كان مقدورًا لكان ممكنا ولا شك أن مجرد الإمكان في الطبيعة المرسلة (المطلقة) يستلزم الفيضان عنده ـ وانتفاء اللازم يدل دلالة قاطعة على انتفاء الملزوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهذه الشناعة الخبيثة كفر خالص عند الإسلاميين دونما أية ريبة، وربما لا يستسيغه الفلاسفة أيضًا لأنهم يفرقون بين الكلى معدوم الأفراد والكلى ممتنع الأفراد (مستحيل الأفراد) فالكلى معدوم الأفراد وأقسامه (تقاسيمه) قسم لقسيم الكلى ممتنع الأفراد ـ كمثل الحروف العاملة وأقسامها قسم لقسيم الفعل أى الحرف المطلق ـ ولا بد من المنافاة بين الشىء وقسيمه كما صرح فى أسفارهم.

فيا للعجب! إن كان باقر قد غفل عن هذا فقد كان المتبقر عاقلا نبيها ولكن صدق ربنا ـ تبارك وتعالى : ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ثالثًا: إن قول التابع والمتبوع ـ عدم البخل فى جهة المبدأ مستلزم للفيضان ـ لقول معارض لمبادئ الإسلام ومضاد لأصول السنة المطهرة. فإن مما اعتقد وآمن به أهل السنة والجماعة أن المبدء ـ تبارك وتعالى ـ جواد كريم وأنه أكرم الأكرمين ـ جل جلاله وتقدس فعاله ـ ومع هذا لا يجب على المولى عز وجل شىء عندهم، والحق جل جلاله كان جوادًا قبل أن يخلق العالم وهو جواد ولو لم يخلق العالم أبدًا ولا يتطرق إليه عيب بعدم خلقه ولا يتعرض كماله الأكمل لنقص بعدم الإيجاد والخلق، فلا يجب عليه إيجاد شىء أو إعدامه.

قال الحق جل جلاله : ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٥- ١٦].

وقال تعالى شأنه : ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وهذا واضح جلى عند كل من نور الله بصيرته ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور ولا شك أن ذلك الاستلزام ناشىء من تلك الفلسفة الملعونة التى تجعل القادر المختار ـ تعالى شأنه ـ فاعلا موجبًا وهذا الاستنتاج مبنى على تلك البدعة المنحرفة التى تجعل إيجاد العالم سببا لكما له، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

رابعًا: وما هو أقبح وأشنع قوله «فإن صدر عنه غير الأحق وتخلف الأحق لزم ترجيح المرجوح» سبحان الله ! فلا أحق هناك، وليست عقولكم السخيفة بحاكمة على القادر الحميد الفعال لما يريد، وليس عندنا مرجح سوى إرادة المولى تعالى، وإن سلمنا أن هناك مرجحا سوى إرادته فلا حرج عليه بعد، قال تعالى : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال تعالى شأنه: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١]، وقال جل جلاله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨].

وبكلام أوضح، إن خلاصة ما ذهب إليه أهل السنة فى هذا الباب أن جميع المقدورات متساوية إلى حضرة المولى ـ تبارك وتعالى ـ ولا شيء من الاستحقاق لأحد من ذاته فلا راجح ولا مرجوح هناك.

يقول العلامة السنوسى فى «شرح الجزائرية»، إن الذى أوقع المعتزلة فى الضلالات كإيجاب الثواب وفعل الصلاح والأصلح على الله تعالى، اعتمادهم فى عقائدهم على التحسين والتقبيح العقليين وقياسهم أفعال الله تعالى وأحكامه على أفعال المخلوقين، وأحكامهم من غير أن يكون فى ذلك جامع يقضى التسوية فى الأحكام والذى أجمع عليه أهل الحق أن الأفعال كلها متساوية بالنسبة إلى تعلق قدرة الله تعالى وإرادته بها(١).

إنما الترجيح هناك بمجرد الإرادة من ذلك القدير المجيد ـ عز مجده ـ فما تعلقت إرادته ترجح، ففى «شرح الطوالع»، تخصيص بعض المقدورات بالتحصيل

---

(١) أى فيقدر على كل شيء ويفعل ما يريد لا ترجيح قبل إرادته وإنما الترجيح بإرادته فهى موجبة الرجحان لا هى محرك الإرادة هكذا ينبغى أن يفهم هذا المقام وقد رأينا تصديق ذلك فى قعبى العطشان وطريقى السالك، فأراد الله سبحانه أو لي بذلك (المؤلف قدس سره).

وبعضهـا بالتقديم والتأخيـر لا بد له من مخصص لأن نسبة جـميع المقدورات إلى ذاته متـساوية وليس هو نفس العلم فـإنه تابع للمعلوم ولا القدرة فـإن نسبتـها إلى الجميع على وتيرة واحدة فلا بد من صفة أخرى من شأنها التخصيص وهى الإرادة إلى آخره ملخصًا.

وإن افتـرضنا أن هناك مرجـحا سوى إرادة المولى عز وجل فـاعلم أنه لا يجب على المولى المقـتدر جل جـلاله اتباع هـذا المرجح وله أن يجعل الراجح مـرجوحـا ويخلع على المرجوح خلعة الوجود ولا حرج عليه ألبتة.

ففى «شرح المواقف» اعلم أن الأمة قد أجمعت إجـماعا مركبا على أن الله تعالى لا يفعل القبيح ولا يترك الواجب فالأشاعرة من جهة أنه لا قبيح منه ولا واجب عليه وأما المعتزلة فمن جهـة أنه ما هو قبيح يتركه وما يجب عليه يفعله وإنا قـد بينا فيما تقدم أنه تعالى الحاكـم فيحكم بما يريد ويفعل مـا يشاء لا وجوب عليه كـما لا وجوب عنه ولا استقباح منه «إلى آخره ملتقطًا.

يقول الشـيخ الناصح محمد الأفندى البـركلى فى «الطريقة المحمديـة» وسيدى العارف بالله عـبد الغنى النابلسى فـى شرحه «الحـديقة الندية» لا يلزم عليـه تعالى شىء من فـعل صلاح أو أصلح أو فـساد أو أفسـد بل هو الفاعل العـدل المختـار «ويخلق الله ما يشاء ويختار» إلى آخره مختصرا.

وفى شـرح «العقـائد النسفـية» ليت شـعرى مـا معنى وجـوب الشىء على الله تعالى إذليس معناه استحقاق تاركه الذم والعقاب وهو ظاهر ولا لزوم صدوره عنه تعالى بحـيث لا يتمكن من التـرك بناءًا على استلزامه مـحالا من سفـه أو جهل أو عيب أو بخل أو نحو ذلك لأنه رفض لقاعدة الاختـيار وميل إلى الفلسفة الظاهرة العوار.

فانظر فى هذه العـبارة كيف تكفلت بـالرد على هذا الفلسفى الجديد بالإضـافة إلى إخوانه القدماد واستـأصلت توهم البخل على المولى عز وجل من جذوره ولله

الحجة السامية وهذه المعانى الرائعة التى أفادها العلماء فرداً فرداً، جميعها مستفادة من تلك الآيات الكريمة التى تلاها الفقير قبل قليل.

ثم أقول: وإن صرفنا النظر عن اللتيا والتى فإن هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:٢٠] وحدها كافية لاستئصال هذه الشبهة وأمثالها حيث إن المرجوح شىء وكل شىء مقدور، ولا معنى للقدرة إلا صحة الفعل والترك منه أى لا حرج عليه تعالى فى حال من الأحوال سواء فعل أو لم يفعل.

ففى «الطوالع» القدار الذى يصح منه أن يفعل المقدور وأن لا يفعل إلى آخره فهل يعقل بعد هذا من عاقل أن يلزم ترجيح المرجوح على جناب البارى تعالى شأنه وهل تسوغ هذه التقولات الباطلة على القادر المختار جل جلاله فى شريعة من الشرائع؟

وقبل أن نخوض فى مبحث آخر نقف هنا أولا وقفة تساول، ونتساءل ما هو المعنى المقصود من كلام زيد ـ لزم ترجيح المرجوح ـ هل يقصد من ذلك الاستحالة الذاتية؟ فإن قصد هذا فلا شك فى بطلان هذا الوهم بل بطلانه من أبين البديهات لأن الاستحالة الذاتية ـ لو كانت ـ لكانت بالنسبة لقدراتنا القاصرة الباطلة التى تزول وتفنى أما بالنسبة إلى تلك القدرة الباقية التامة الكاملة الدائمة فلا مجال لاستحالة الذاتية هناك فهذا ما يتعلق بالاستحالة الذاتية، فإن كان قصده أنه مستحيل من جهة كونه عيباً فى حقه تعالى فذلك أيضاً باطل كسابقه إذ فيه قياس الغنى الحميد على العبد المخلوق العاجز وذلك لا يجوز فى عقل عاقل وأيضاً فيه إعراض عن مئات من النصوص القرآنية ألا ترى أن أفعالنا منها ما يحسن ومنها ما يقبح أما فعله سبحانه وتعالى فكله جميل دائماً لو فعلنا ما يفعل [1]المولى تبارك

---

(١) ولله در من عبر عن هذا المعنى الإيمانى الجميل بهذه الأشعار الرائعة:

فديتك قد جبلت على هواكا ... ونفسى لا تنازعنى سواكا

أحبك لا ببعضى بل بكلى ... وإن لم يبق حبك لى حراكا

ويقبح من سواك الفعل عندى ... وتفعله فيحسن منك ذاكا

(محمد جلال رضا).

وتعالى تعرضنا للنقاش والمحاسبة ولو فعل هو الفعل الذى نفعل نحن فلا حرج عليه ولا نقاش، ألا ترى أنك لو قتلت مسلما لأجل كافر لاستوجبت العقاب والعتاب وقد غلب الله تعالى الكفار على المسلمين مرارا ومكنهم من قتلهم فلا شيء عليه ولا لوم على فعله تعالى.

بالله عليك إن هذا الموضع ينبغى أن يجيش قلب المؤمن فيه بمحبة المولى عز وجل ويمتلأ فؤاده بعظمته سبحانه وتعالى.

إن شأن الجميل كله لعجيب وكل فعل يصدر من الجميل حسن وجميل أن الملابس الوسخة على جسم الإنسان القبيح لبشعة فإن ارتداها جميل فلا تسأل عن بهجته وعن جماله (ولم نقصد التشبيه من هذا المثال وإنما قصدنا التقريب والتفهيم) ولله المثل الأعلى عياذ بالله، لئن أدخل المولى عز وجل عبده المسلم النار ـ والعياذ بالله ـ وسئل هذا العبد المسلم ما رأيك فى معاملة ربك معك بهذا، فلا شك أنه يبادر بالقول قد عدل ربى وأحسن فيما فعل، ولكن عافيتك أوسع لى – خلاصة هذه التفاصيل، أن قول زيد هذا مستنقع لأنواع أنواع الضلالات والجهالات ومنبع للفلسفة والاعتزال، نسأل الله العافية ولا حول ولا قوة إل بالله العزيز الحكيم.

القول السادس

وفى القول السادس قد نقل فيما نقل، أن العقول العشرة مقدسة عن جميع النقائص منزهة عن جميع القبائح وإن علمها تام ومحيط إحاطة شاملة بحيث لا تخفى عليها ذرة من ذرات العالم بل لا يمكن خفاء شيء منها على العقول وما من شك أن هذا الوصف بهذا الشمول والكمال خاص بحضرة المولى عالم الغيب والشهادة جل جلاله قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس:٦١]. ونسبة هذا الوصف إلى غير المولى عز وجل كفر بلا شك، وليتأمل المسلم فى قوله بعدم الإمكان ليتأكد من الكفر الذى يتجلى منه،

ولا ريب أن هذا معارض لمئات من النصوص القرآنية، قال الحق جل جلاله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر:٣١] وقال تعالى شأنه : ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وقال المولى عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك:٢٥-٢٦]. وقال جل شأنه : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢].

سبحان الله، وقد قال بعض المتفلسفة إن العقول العشرة عبارة عن الملائكة وإن هذا إلا كذب محض وافتراء خالص لأن الأوصاف التي يسندها هؤلاء السفهاء إلى هذه العقول لا علاقة لها بأوصاف الملائكة أصلا لا من قريب ولا من بعيد ومن أكذب ممن كذبه القرآن نفسه، ألا! إنما هي من أوهام هؤلاء السفهاء التي لا وجود لها ألبتة.

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[النجم:٢٣] وإن سلمنا أنها عبارة عن الملائكة وتخيلنا أن كفار اليونان قد أفرطوا في شأن الملائكة إفراطًا وغلواً فيها نزهدهم عن أوصاف الخلق كالمشركين العرب الذين قد أفرطوا في شأن الملائكة حيث جعلوهم بنات الله.

فلننظر كيف كذبت هذه العقول نفسها هؤلاء السفهاء وكيف تعترف بجهلها وتقر بعجزها في حضرة المولى جل جلاله وكيف تقدس وتسبح لله الواحد القهار صدق الله تعالى : ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨٢] وفي «الإعلام بقواطع الإسلام» من ادعى علم الغيب في قضية أو قضايا ل يكفر ومن ادعى علمه في سائر القضايا كفر.

وفيه أيضًا نقلاً عن علماء الحنفيـة فى فصل الكفر المتفق عليه، أو وصف محدثًا بصفاته أو أسـمائه. ومهمـا يكن من أمرٍ فإن حكم هذه القضـية واضح وبين، وإنما الأمر الذى يدعـو إلى التأنى والتـريث هو تقيـيد زيد كلامـه هنا بـ «عندهم» الذى يدل صراحة على الحكاية والنقل.

أقـول ومع غض النظر عن هذا فـإن جـملة «لا يمكن أن لا يعلم العـقل الأول مثلا» كـفر جلى وغير مندرج تحت الحكاية والنقل بل هو اسـتنتاج وتفريع من زيد على التنزه التام السابق المنقول، كما يشهـد به سوق العبارة ولا ينفعه قيد «عندهم» لأنه قد اعترف وأقر بعلم المجردات بالجزئيات المادية على سبيل الجزئية ووصفه بأن هذا هو المذهب المحقق ثم استدل على هذا الزعم بالقول السابق المنقول وعلى هذا لم يبق ذلك فى مـوطن النقل والحكاية بل تحـول إلى مـحل الاعتـمـاد والتعـويل، وبالإضافة إلى ذلك قد نصب نفسه للدفاع عنه وانتدب للانتصار له فهو محام عنه ومنتـصـر له دع عنك الرد عليـه والاسـتـنكار له ولا شك أن هذه القـرائن من أبين وأوضح الأمارات التى تدل على الرضا والقـبول، كما لا يخفى على عـاقل فضلا عن فاضل، وزيادة على ذلك فإننا قـد حققنا من قبل أن سرد هذه الأقوال وأمـثالها ولو بتصريح الحكاية والنقل غيـر مشروع شرعًا إلا إذا كان مشفـوعًا بالرد ومقرونا بالاستنكار.

وبعد اللتيا واللتى فلا يحوم شك فى شناعة هذا القول وبشاعته، فتدبر تدر.

القول السابع

لقـد أثار زيد هذا الكفـر البـين فى القـول السـابع، حـتى تجلى كـالشـمس فى منتصف النهار، وقد خلع هنا رداء الحياء عن وجه الرياء فجعله حقًا مبينًا وعده فى أقوال المحققيـن، فإليك ما كتب «إن العدم الزمانى ليس عدمًا فى الواقـع والحقيقة،

فكل ما وجد وما سيوجد لم يكن معدومًا قط ولن يعدم أبدًا، قصارى ما هنالك أنه لم يكن أى كان مخفيًا وقد عدم أى قد خفى وإلا فلا ينفك الوجود عنه حقيقة فى حال من الأحوال فى الواقع ونفس الأمر إنا لله وإنا إليه راجعون.

إن الشناعات الشديدة التى تستتبع هذا القول والقبائح التى تستلزم هذا الزعم منفلتة عن نطاق العدو خارجة عن إطار الحصر، غير أن المثل مشهور ما لا يدرك كله لا يترك كله، فأقول وبالله التوفيق أولاً: إن مفاد هذا القول ومضمونه معارض لكثير من النصوص القرآنية الصريحة فمنها قال المولى جل جلاله ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٦٧] بيد أن زيد المتفلسف يقول كان ولكن في ستر الحجاب، وقال الله تعالى شأنه: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ [النجم:٥٠- ٥١] ولكن يقول هذا المتفلسف بقى وأن الأرواح مرتبطة بالأبدان فى الواقع ونفس الأمر غير أنه خفي عن أنظارنا، ويقول الرب تبارك وتقدس : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ *وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]. ويقول متفلسفنا هذا سيبقى الجميع، كل فى الحجاب والستار وهو فى التجلى والظهور.

وهناك مئات من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة أمثال ما تلونا الآن التى لن يتسنى عنها الجواب من زيد أبدًا، إلا أن يلجأ إلى التأويلات البعيدة أو يلوذ بأذيال التعسفات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع فيقول مثلا فى كل موطن من القرآن الكريم أو السنة المطهرة يتحدث عن الخلق والإيجاد أو الإبداع والتكوين أنه بمعنى الظهور والإظهار وكذلك فى الإماتة، والإهلاك والإفناء والإعدام أو العدم والفناء والموت والهلاك بأنها محمولة على معنى التغييب أو الغيبوبة ومن الوضوح بمكان أن مثل هذه التصرفات الخائنة فى النصوص الشرعية تبديل بحت لا علاقة له بالتأويلات المشروعة من قريب أو بعيد ولا يسانده العرف أو اللغة ولقد ركب الفلاسفة الأشقياء هذا النوع من التحريف المعنوى نفسه فى

مواطن من القرآن العظيم، فالجنة عندهم عبارة من اللذة النفسانية والنار كذلك عبارة عن الألم الروحانى، ينظرون إلى«تطلع على الأفئدة» ويهملون «فى عمد ممدة» ـ والعياذ بالله ـ وليس ببعيد عنهم ذلك اليوم العظيم يوم يدعون إلى نهار جهنم دعا، فيقال لهم، أفسحر هذا أن أنتم لا تبصرون، وحينئذ سيذوقون وبال هذه التأويلات الباطلة، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين.

ليس هو وحده فى مستنقع هذا التأويل المبتدع فحسب بل المبتدعون جميعا بأسره فى كل مكان وزمان إنما يتلاعبون بالنصوص الشرعية نفس التلاعب، وما منشأ الضلالة وأصل البدعة إلا مثل هذه التأويلات الباطلة، فقديما قالت المعتزلة فى قوله جل جلاله ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف :٨] قالوا إنما المقصود من الوزن هو الامتحان فلا ميزان بالتالى وفى قوله جل جلاله :﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢- ٢٣] إنما المراد من النظر هو الانتظار والرجاء فلا رؤية للمولى عز وجل إلى غير ذلك من الجهالات الكثيفة والضلالات الخسيفة، فهل نفعتهم هذه التأويلات وهل أنقذهم تلك التعسفات من لقب البدعة كلا، ومع هذا فإن تأويلات المعتزلة بأن المقصود من الوزن هو الامتحان وأن المقصود من النظر هو رجاء الثواب، نقول إن هذه التأويلات الاعتزالية أخف بكثير من تلك الأباطيل وأقرب إلى الصواب منها بدرجات بخلاف هذه التحريفات الغريبة التى يضطر إليها هذا المتفلسف لتقويم قوله المنعرج وتهذيب مذهبه المعوج، كما لا يخفى والله الهادى.

ففى «الشفا الشريف» فى الحديث عن الباطنية وغيرهم من الغلاة، زعموا أن ظواهر الشرع ليس منها شىء على مقتضى ومفهوم خطابها وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم إذ لم يمكنهم التصريح لقصور أفهامهم فمضمون مقالهم إبطال الشرائع وتكذيب الرسل والارتياب فيما أتوا به إلى آخره ملخصًا.

وقد اجتمعت كلمة أهل السنة والجماعة أن النصوص تحمل على ظواهرها عند

خلوها عن القرائن وأن التأويلات فيها محرمة شرعًا وغير مجدية، كما صرح به فى كتب العقائد متنا وشرحًا.

ثانيًا: لما كان البقاء فى وعاء الدهر وجودًا على وجه الحقيقة وكانت الأعدام الزمانية مجرد حجاب وخفاء لزم بالتالى عجز المولى جل جلاله عن إعدام موجود ولزم تفلت المخلوق عن قبضة الخالق فقصارى ما يستطيع هو تغييبه وإخفائه دون محوه عن صفحة الدهر ورفعه عن الواقع لأنه مستحيل الوقوع ولن يعدم الموجود أبدا، وهذا بين جدًا.

والحاصل: أن العدم الحقيقى على هذا هو الارتفاع عن صفحة الدهر ـ كما اعترف به ـ وكل ما وجد أو يوجد فإنه مرتسم فيها وإنما المرتفع ما لم يتناوله اسم الوجود من أزل الآزال إلى أبد الآباد فما دخل فى الكون ولو أنا قد تناوله اسم الوجود لا يمكن أن يصير التناول لا تناولا فاستحال العدم الحقيقى، والعياذ بالله تعالى.

ثالثًا: إن المسلم الذى يخرج من النار إلى الجنة بشفاعة سيد الشافعين ﷺ أو بمحض الرحمة من أرحم الراحمين كما وردت بذلك النصوص الصحيحة الصريحة يلزم على مذهب زيد أن يكون هذا المؤمن السعيد فى النار بعد الخروج منها فى الواقع ونفس الأمر وإن قصارى ما حصل من الخروج هو أنه أخفى فيها، وكذلك إبليس فإنه كان فى الجنة قبل إباءه إلسجود، قال تعالى : ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، فقد لزم على ذلك أن يكون فى الجنة فى الواقع ونفس الأمر، وليس الإخراج من الجنة هنا إلا الإخفاء فيها وقد يقول قائل هنا فهل يستمر لهؤلاء المسلمين من ألم العذاب والعقاب بعد الخروج منها نبادرهم بالإجابة، أجل يستمر لهم ألم العذاب، ولا شك فى ذلك على مذهب زيد قصارى ما هنالك أنه من وراء الحجاب، وأستغفر الله العظيم، وكذلك فقل فى التذاذ الشيطان بنعم الجنة وهو فى النار، ومهما يكن من أمر فإن الأمر لا يعدو

الخفاء والظهور وإن حاولت أيما محاولة ولا ريب أن ملاك الأمر ليس إلا الواقع ونفس الأمر وإنما العبرة به.

رابعًا: ومما يستتعب قوله هذا من المفاسد، أن يكون الكافر[1] فى الجنة فى حالة الكفر وذلك إذا كان بكر كافراً ثم أسلم فقد تعرض كفر بمكر للعدم الزمانى دون الارتفاع عن صفحة الواقع وذلك لا يعدو مجرد الاختفاء والغيبوية وهو غير مناف للوجود الحقيقى ومما لا شك فيه أن الكفر عرض من الأعراض التى لا تقوم بذاتها بل تحتاج لقيامها إلى الموضوع، وتبدل الموضوع مستحيل عند العقلاء جميعا، فإن القائم بهذا غير القائم بذلك، فالكفر الموجود فى الواقع ونفس الأمر لا مقام له فى شيد سوى زيد، وإن قيام المبدأ يستلزم صدق المشتق وعلى هذا فهو كافر حقيقة وكذلك يقال فى كل كافر أسلم واعتنق الإسلام فإنه يدخل الجنة بمقتضى حكم الشرع، فقد لزم أن يكون الكافر مع كفره فى الجنة ومنتهى القول فيه أن كفره بسبب العدم الزمانى مختف وإسلامه ظاهر.

خامسًا: لما كان الأعدام الزمانية السابقة واللاحقة كلها مجرد احتجاب واختفاء فقد نتج من ذلك أن تكون كل ذرة من ذرات العالم أبدية فزيد لم يكن بالأمس أى كان مختفيا ولا يكون غداً أى سيختفى والوجود الحقيقى دائم سرمدى، إن هذه إلا كفر عظيم ولا كفر أكبر منه.

تقريره، أن القدم الذى نخصه بالملك العزيز عز وجل وصفاته العليا ليس بمعنى أن لا يمر زمانه إلا وهو فيه أو لا يخلو عنه جزء من أجزاء الزمان فإنه سبحانه وتعالى متعال عن الزمان لا يمر عليه زمان كما لا يحيط به مكان فهو مع كل زمان لكن ليس فى الزمان وكذلك صفاته جلت أسمائه ألا ترى أن الفلاسفة قالوا بقدم العقول فأكفرناهم مع أنهم لا يعتقدون قدمها بالمعنى المذكور لأنها أيضًا ليست

---

(١) وكذلك يستلزم أن يكون المسلم مع إسلامه مخلداً في النار كما في الارتداد والعياذ بالله (المؤلف قدس سره).

عندهم من الزمـانيات فـإذًا لا نعنى به إلا أن الشىء لا بداية لوجـوده كمـا نقصـد بالأبدية أن لا نهـاية لخلوده وهذا ظاهر جلى وقـد صـرح به أئمـة الكلام كالإمـام الرازى وغيره، وإذا كان الأمر كما وصفنا لك والأعدام الزمانية لا تزيد عندك على غيبـة وخفـاء فإذن مـا ظننت أن الحدوث وأن الفـناء ليسـا بهمـا، ولا بهمـا بداية الوجود، ونهايته وإنما هما آنا بداية الظهور وانتـهائه أما الوجود الواقعى فلا أول له ولا آخر إذ ليس فى الدهر على القـول به إمكان يسع «يكون وقد كان» فـما خلت عنه الصفحة لا يرتسم فيها أبدا وما ارتسم فيـها مرة لا يمنحك عنها أصلا فالنتيجة إن كل موجود كان مستقراً فيها من الأزل ويبقى مستمراً إلى الأبد.فثبت أن لا بداية لوجود العالم ولا نهاية وهذا ما أردنا الإلزام به.

يقول العبد الضعـيف لطف به المولى اللطيف إنا لو أوسعنا المقال فى إبطال هذا المحال فعندنا بحمد الله تعالى شوارق بوارق تـبهر العماء (هو اللجاج لأنهم قليلا ما يبهتون) وسحائب قواضب تمطر الدماء ولئن تضرعنا إلى القريب المجيد لرجونا المزيد ونلنا البـعيد ولكن فـيما ذكـرنا كفـاية لأهل الدراية والحمد للـه على حسن الهـداية أيهـا المسكين ! إن هذا الوصف العـظيم عندنا إنما هو لعـلم البـارى جل جلاله المحيط بجميع الكوائن الماضية والآتـية المنزه عن الزمان، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وكل ذرة من ذرات العالـم كانت فى علمه قبل أن يخلق العالم ولـم يزل علمه تعالى على حـاله بعد أن خلق العالم ولا يزال علمه محيطًا بكل شىء عندمـا تفنى الفانيات حسب الوعد الإلهى، العالم يتـغير وعلمه عز وجل لا يتغير، يمر بالأشياء أحوال ثلاث: العدم، والحدوث، والفناء، ولم يزل علمه تعالى محـيطًا بالأشياء فى أحوالها الثلاثة بصفـة مفصلة ولا يزال كذلك إلى الأبد قد تغـير المعلوم ولـم يتغـير العلم ألبـتة وإنما تعددت عـبارتنا عن ذلك الشىء ولغـتنا القاصـرة التى لا تدور إلا فى إطار الزمـان ومحـيط المكان.، فقـد نعبـر ـ بـ يوجد ، وقد نأتى بموجود وقد نقول، كان وجد.

فهذا هو الوجود الذى لا يتطرق إليه التبدل والتغير، فعبر عنه فى اصطلاحك إن شئت بوعاء الدهر، وحاق الواقع أو غيره ما يحلو لك ولكن لا يمكن أن يكون هذا الوجود حقيقيًا ذاتيًا للأشياء كما لا يطلق بحصول الشىء فيه أنه موجود فى نفسه وإلا عادت تلك الاستحالات السابقة عن آخرها.

وليس للزمانيات وجود وعدم حقيقة إلا ما يعبر عنه زيد بالظهور والخفاء فإذا أسلم كافر فقد انعدم كفره فى نفس الأمر ألبتة ولم يبق له قيام بذات زيد ولا كون للأعراض فى نفسها بل كونها إنما يكون فى الموضوع وإذا خرج مسلم من النار فقد انتهت حالته النارية تلك بمجرد الخروج منها لأنه عرض من الأعراض وهو زائل باطل بعد انفصاله عن الموضوع وعلى هذا القياس.

يا هذا لو كان الوجود الواقعى بمجرد الوجود العلمى لاستحال عدم أمر من الأمور سوى الممتنعات لأنه لا حجر على العلم ولا حرج عليه فإنه يتعلق بالموجود والمعدوم على حد سواء وبالرغم من هذا ليس بخاف على أحد من العقلاء أن الشىء لا يطلق عليه لفظ الموجود بمجرد حصوله فى العلم، فإن الطوفان فى عهد سيدنا نوح عليه السلام غير موجود الآن فى الواقع وهو موجود فى علمنا وكذلك يوم القيامة لم يوجد الآن وهو معلوم لأذهاننا ولن يقاس العلم بالواقع فأين الحكاية من المحكى عنه؟

أيها السفية ! إن المعضلات الفكرية التى تعرضت لها إنما هى ناتجة من سفاهتك نفسك فإنك سميت الوعاء المخترع بنفس الأمر ثم جعلت البقاء فيه حقيقة وجود الأشياء وجعلت الأعدام الزمانية السابقة واللاحقة مجرد احتجاب واختفاء فليت النمل لم تطر.

وأعجب من ذلك أنك جعلت وعاء الدهر ظرفًا حقيقيًا مستقلا ثم جعلت الوجود الدهرى للزمانيات مستقلا عن الوجود الزمانى حتى جعلت البقاء متواصلا بعد الانعدام من كل جزء من أجزاء الزمان ولا شك أن الاستحالات

البينة التى تستتبع هذا التقرير من جهة المنهج العقلى ليست بخافية على المشتغلين بالفلسفة والكلام المتعودين للجدال والخصام ولا نضيع الوقت فى الاسترسال وراء هذه الأوهام فإن منصب الإفتاء يجب احترامه وإجلاله وهذا الجدال والخصام ليسا من مهماتنا ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

تنبيه: قد علمنا أن الكلام هنا سينجر إلى مسألة عويصة فى العلم ولكنها إنما تعتاص على الذين جعلوا قلوبهم وراء ظنونهم أو اعتادوا الجدال وقيل وقال وكثرة السؤال وركض البغال فى مضيق المجال أما أهل السنة فهم بحمد الله آمنون فرحون بفضل الله مستبشرون لا يصعب عليهم شىء من مسائل الذات ودقائق الصفات كيف وأنهم أصلوا أصلا فى أصول الدين فهو وردهم وهو صدرهم فى كل حين وذلك أن ما أثبته الشرع فسمعًا وطاعةً وما رده فإليك عنا وما لم يخبر عنه فعلمه إلى الله وهم لا يجيزون التقول على الله عز وجل من دون ثبت أو أثارة من علم سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك انت العليم الحكيم.

وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن عدى والبيهقى وغيرهم عن ابن عمر عن النبى ﷺ : «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله» وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس عن النبى ﷺ : «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى كل شىء ولا تفكروا فى ذات الله فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك» أخرج أيضًا عن أبى ذر عن النبى ﷺ كلفظ الحلية وزاد «فتهلكوا» نسأل الله العفو والعافية.

القول الثامن

لقد اتضح حكم القول الثامن مما سبق من التحقيقات البالغة فى مفاسد الأقوال السبعة السالفة فلتقس على البستان ربيعه.

هذه هى الكفريات التى كان بها كل هذا الاعتزاز وهذه هى الضلالات التى كان بها كل هذا الاهتمام والاحتفاء ومن الواضح الجلى لدى كل مسلم درجة

القبح التى تستتبع هذا المدح والإشادة منه بهذه المعانى الفاسدة وتلك المضامين الباطلة، وإن بغيت التفصيل فأقول وعلى الله التعويل:

أولا: لقد وصف هذا الكتاب بأوصاف بالغة من التدقيق الفصيح والتحقيق الصريح، واكتناه الحقائق وما من ريب أن هذه الكلمات نص صريح فى تصحيح الكتاب وتصويب محتوياته، مع أنه ملئ بمذاهب الفلاسفة المكفرة، وقد قال العلماء الكرام من صرح بمذهب من مذاهب الكفار فقد كفر وإن كان مقراً بالإسلام ومعتقداً له بل وإن كان معلنا للإسلام على رءوس الأشهاد، ففى «الشفا الشريف» يكفر من لم يكفر من دان بغير ملة الإسلام أو وقف فيهم أو شك أو صحح مذهبهم وإن أظهر الإسلام واعتقده واعتقد إبطال كل مذهب سواه فهو كافر بإظهار ما أظهر من خلاف ذلك، وكذلك نقل الإمام الأجل أبو زكريا النووى رحمه الله تعالى فى «الروضة» وأقره بل وقال العلماء العظام من حسن أمراً من أمور الكافرين فقد كفر عند الجميع يقول العلامة السيد أحمد الحموى فى «غمز العيون» اتفق مشايخنا أن من رأى أمر الكفار حسنًا فقد كفر حتى قالوا فى رجل قال : «ترك الكلام عند أكل الطعام حسن من المجوس أو ترك المضاجعة عندهم حال الحيض حسن» فهو كافر إلى آخره، ومثله فى «البحر الرائق» وغيره، وفى «الإعلام» نقلا عن علمائنا فى فصل الكفر المتفق عليه، أو صدق كلام أهل الأهواء أو قال عندى كلامهم كلام معنوى أو معناه صحيح أو حسن رسوم الكفار.

وحمل العلامة ابن حجر أهل الأهواء على الذين نكفرهم ببدعتهم، قلت وهو كما أفاد ولا يستقيم التخريج على قول من أطلق الإكفار بكل بدعة فإن الكلام فى انكفر المتفق عليه فليتنبه.

ثانيًا: قد روى أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتابه «ذم الغيبة» وأبو يعلى فى مسنده والبيهقى فى «شعب الإيمان» عن سيدنا أنس رضى الله عنه وروى ابن عدى فى «الكامل» عن سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إذا مدح

الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش» وقال العلماء وذلك لأن المولى تبارك وتعالى قد أمرنا بالتجنب عن الفاسق وإبعاده عنا أفاده المناوى.

والحاصل أن الفاسق يستحق الإهانة شرعًا وفى المدح تعظيم، وهنالك فليتقطع قلوب المتهورين لما كان مدح الفاسق على هذا القدر من الشدة بسبب مقاربته للمعاصى فما بال المدح لهذا الكتاب الذى يحمل فى طيه كل هذه الكفريات الصريحة وكم يغضب الرب منها وكم يهتز لها عرش الرحمن، ثم انظر الفرق بينهما فهناك معصية وهنا كفر ثم هناك مقاربة وارتكاب فقط وهنا الحمل والتضمن لأن المعصية لا تكون جزء من بدن الفاسق أو روحه بخلاف هذه الكفريات فإنها لحمة الكتاب وسداه وجزء لا ينفك عنه وهى لازمة فى جميع الأحوال فى الكتابة والقراءة سا[illegible]ى اللفظ والمعنى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثالثًا: نستوضح زيدًا هنا ونستفسره هل يرى هذه الكفريات كفرًا أو لا، فإن لم تكن هذه المعانى عنده من الكفريات فقد اعترف بكفره بلسانه وباء بالكفر على نفسه وإن كانت عنده من الكفريات فإن أهون ما يحكم فى شأنه وفى قيامه بالتأليف والتحرير والطبع والنشر مع احتواء الكتاب هذه الكفريات والضلالات إن فعله هذا حرام بدون أدنى ريب. فإن لم يعترف بحرمة هذه الأفعال فقد استحل كبيرة من أكبر الكبائر. واستحلال الكبيرة كفر فى الشرع، وإن اعترف بحرمتها فقد مدح هذا الأمر المحرم شديد التحريم وعظمه وعلى هذا تتوجه إليه تلك الفتوى الفقهية بأن مدح المحرم القطعى وتحسينه كفر مبين، والعياذ بالله رب العالمين.

والملفت للنظر حقًا، أن هذه القضية (أنا ملك) لا شك أنها كانت فى غاية من الخطورة وبذلك اضطر العلماء إلى إبانة الحكم عنها وإدراجها فى باب المكفرات مع تضعيف من ذهب إلى عدم التكفير، نقول لما كان الأمر بهذا القدر من الخطورة فى هذه المسألة مع خفتها نسبيًا إلى ما نحن فيه. فلتتخيل درجة الخطورة فيمن قال

إن كتابه يجعل البشر ملكًا، نسأل الله تعالى العافية، وتمام العافية، ودوام العافية، والشكر على العافية وحسن العاقبة، وكمال الإيمان والله المستعان.

ملاحظات على اسم الكتاب

ولم يبق بعد كل هذا إلا اسم الكتاب، وكان قد استفسر عن حكمه بعد الأحباب الخلص ـ كان حفظ الله له نصيراً حسنا ـ قبل ورود هذه الأسئلة فأقول وبعون الله أجول، في هذا الاسم احتمالات عديدة تنشأ من اختلاف الإضافة ووصف الناطق، غير أنه لا يخلو أى واحد منها عن المحذور الشرعى **أما الوجه الأول**، فعلى تقدير الإضافة ـ أعم من أن تكون بتقدير «اللام» أو «من» فالظاهر المتبادر من «ناطق ألنا له الحديد» هو حضرة المولى تعالى وتقدس، فالمعنى على ذلك المنطق الجديد لمن قال فى القرآن المجيد ألنا له الحديد، أو المنطق الجديد ممن قال ألنا له الحديد ولا شك أن القائل بهذا هو مولانا تبارك وتعالى وهذا الوجه يستتبع كثيراً من المفاسد الوخيمة، أولا فيه إسناد هذه المعانى الباطلة والمضامين الفاسدة إلى المولى عز وجل وذلك افتراء بين عليه تعالى، قال المولى عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦] يقول الإمام عبد الرشيد البخارى تلميذ الإمام العلامة الظهيرى والإمام فقيه النفس القاضى رحمهم الله تعالى كما فى خلاصة الفتاوى من قال أحسنت لما هو قبيح شرعًا أو جودت كف ، وفى «الطريقة المحمدية» كل تحسين للقبيح القطعى كفر وفيها عن الإمام ظهير الدين المرغينانى من قال لمقرء زماننا «أحسنت» عند قرائته يكفر وفى المحيط إذا شرع فى الفساد وقال لأصحابه «بيابيد تايكى خوش بز بيم» تعالوا نفرح سويا، كفر.

والفروع الناشئة من هذا الأصل فى كلمات العلماء الكرام كثيرة وكثيرة، نسأل الله العافية.

رابعًـــا: ومما يدعـو إلى العجـب والاندهاش، هذا الإطراء المذهل وذلك المدح المفرط حـيث وصف كتابه بـأنه ملكى التأثير بل وصـفه بأنه جاعـل الإنسان ملكًا، سبحان الله، ها هو مستنقع الكفريات ومزبلة الخـرافات والبطالات تجعل البـشر مـلكـا[1]، قال العلماء العظام لا يـنبغى التشبيه بـالملائكة وقد يؤدى الإصرار على ذلك إلى الكفر. والعيـاذ بالله تعالى ففى «الشفا» ونسـيم الرياض، من يمثل بعض الأشيـاء ببعض ما عظم الله تعـالى من ملكوته (من الملائكة والعرش ونحوه) غـير قاصد للاستخفاف فـإن تكرر هذا منه وعرف به دل على تلاعبه بدينه وهذا كفر لا مرية فيه إلى آخره ملخصًا.

فلتتخيـل بعد هذا مدى الوخامة التى تترتب على وصـفه هذا المستنقع المنتن بأنه ملكى التـأثير، فـفى «الفتـاوى الهندية» رجل قال لآخـر أنا ملكك فى موضـع كذا أعينك على أمرك فقد قيل إنه لا يكفر وكذا إذا قال مطلقًا أنا ملكك بخلاف ما إذا قال أنا نبى كذا فى «التتارخانية».

وقال عز وجل : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:١٤٤].

حتى لقـد أفتى جمـهور العلماء فى شـأن هذا وأمثاله بالكفـر على الإطلاق ففى «شرح الفقه الأكبر»، فى «الفتاوى الصغرى»، من قال يعلم الله أنى فعلت هذا وكان لم يفعل كفر أى لأنه كذب على الله، وفى المحيـط، من قيل له يا أحمر فقال خلقنى الله من سويق الـتفاح وخلقك من الطين أو من الحـماة وهى ليـست كالسويق كـفر وقال على القارى، أى لافترائه على الله تعـالى مع احتمال أنه لا يكفر بناءاً على أنه كذب فى دعواه، وفى «الـدر المختار» هل يكفر بقولـه الله يعلم أو يعلـم الله أنه فعل

---

(١) اللهم إلا أن يستند إلى ذلك المذهب المرجوح المهـجور القـائل بأن إبليس كان صنفـا من الملائكة فربما سبق من المؤلف القلم فـكتب «جاعل البشر ملكا» بدل أن يكتب «جاعل البـشر شيطانا» أو ربما يطلقون على الشيطان كلمة الملك في اصطلاحهم الجديد حيث إنهم من أتباع المنطق الجديد. سلطان أحمد خان.

كذا أو لم يفعل كذا كاذبًا؟ قال الزاهدى، الأكثر نعم، وقال الشمنى الأصح لا فى «رد المحتار» ونقل فى نور العين عن الفتاوى، تصحيح الأول.

ثانيًا: وفيه مشابهة كاملة بالهيود والنصارى قال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩]. وقال النبى ﷺ : «من تشبه بقوم فهو منهم» أخرجه أحمد وأبو ادود وأبو يعلى والطبراني في الكبير عن ابن عمر بإسناد حسن وعلقه وأخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند حسن عن حذيفة رضى الله عنه.

ثالثا: لقد قال العلماء عن مطلق المنطق وأفتوا بتكفير من جعله من تعليم النبى ﷺ بدعوى أنه أهان علم النبى ﷺ ففى «الحديقة الندية»، الصحابة ـ رضى الله تعالى عنهم ـ لم يكونوا ليشغلوا أنفسهم بهذا الفشار الذى اخترعه الحكماء الفلاسفة بل من اعتقد فى النبى ﷺ أنه كان يعلم الشقاشق والهذيانات المنطقية فهو كافر لتحقيره علم النبى ﷺ سبحان الله ! فانظر هذا المنطق المزخرف الحامل فى طيه مئات من وساوس الأبالسة ودسائس الفلاسفة ألا تكون نسبة كل هذا إلى المولى عز وجل إهانة لحضرته وتنقيصًا من شأنه عز وجل والعياذ بالله تعالى.

رابعًا: لا يجوز إطلاق كلمة ناطق على المولى عز وجل لأنه لم يرد هذا اللفظ له عز وجل فى الشرع، والأسماء الإلهية توقيفية ومن هنا لا يجوز إطلاق كلمة «سخى» عليه جل جلاله مع أننا نؤمن إيمانا جازمًا بأنه جواد كريم لأنه لم يرد فى الشرع المطهر، والمسألة شهيرة وفى الكتب سطير وقد يمثل بجواز الشافى دون الطبيب لعدم الورود أقول ولكن قد ورد فى الحديث الله الطبيب وأنت الرفيق وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه الطبيب أمر ضنى، فليحرر والله تعالى أعلم.

خامسًا: وفى إطلاقه إيهام النقص لأن كلمة «النطق» فى اللغة بمعنى التكلم بصوت وحرف ففى القاموس، نطق ينطق نطقًا، تكلم بصوت وحروف تعرف بها المعانى.

فـائدة: من هنا تبين أن إطلاق كلمة الناطق على المولى عز وجل خطأ من ناحية اللغة أيضًا مع صرف النظر عن الورود وعدمه بخلاف الكلام والقول حيث إنه لا يشترط فيهما الحرف والصوت، فقد قال أمير المؤمنين الفاروق الأعظم في حديث السقيفة زورت في نفسي مقالة وفي شعر الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ولذا لا يقال نطقت في نفسي، وإن النطق حقيقة هو الكلام مع الحرف والصوت الخاص بالإنسان مثل الصهيل والنهيق الخاصين بأصوات الفرس والحمار ولهذا عرف سفهاء الفلسفة الإنسان بالحيوان الناطق كما عرفوا الفرس والحمار بالصاهل والناهق ثم اخترع المتأخرون منهم بأن النطق عبارة عن إدراك الكليات ليكون الحد تاما ولم يسعهم ذلك في الصهيل والنهقيق فأبقوا على ما هو عليه ذلك مبلغهم من العلم إن هم إلا يخرصون. هذا هو المعنى المتبادر من هذا الاسم على تقدير الإضافة كما قد مر بك مفصلا.

الوجه الثاني: لا يمكن أن تصح هذه النسبة وتندفع تلك المحذورات السابقة في حال من الأحوال إلا إذا لجأ المؤلف إلى التأويل البعيد الذي لا يغني عن شيء فيقول مثلا إن المراد من «ناطق» أنا (المؤلف) بدعوى إن الإضافة هنا لأدنى ملابسة، غير أنه أولا، إن العلماء قد عدوا من آفات اللسان أن يريد أحد خلاف المتبادر في المحادثة اليومية العادية بدون أن يكون هناك داع شرعي، ففي «الطريقة المحمدية» ، و«الحديقة الندية»، الخامس من آفات اللسان إرادة غير الظاهر المتبادر من الكلام (الذي يفهمه كل أحد) وهو جائز عند الحاجة إليه (كالكذب على الزوجة وبين الاثنين وفي الحرب وما ألحق بذلك) ويكره (كراهة تحريم) بدونها إلى آخره ملخصًا.

فما بال الكلام إذا كان الظاهر منه مستنقعًا للآفات والمفاسد.

ثانيًا: إن الإيهام وحده كاف للمنع، ففي «رد المحتار» مجرد إيهام المعنى المحال

كاف فى المنع عن التلفظ بهذا الكلام وإن احتمل معنى صحيحا، ولذا علل المشائخ بقولهم لأنه يوهم، إلى آخره.

ونظيره ما قالوا فى أنا مؤمن إن شاء الله فإنهم كرهوا ذلك وإن قصد التبرك دون التعليق لما فيه من الإيهام كما قرره العلامة التفتازانى فى «شرح العقائد» وابن الهمام فى «المسايرة».

فما رأيك إذا كان من الكلام إذا كان من الكلام الممنوع هو المتبادر.

ثالثاً: وليس هذا فحسب ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد فقط، بل بقى أن نستفسر عن تلك الملابسة التى سوغت هذه الإضافة وما هى تلك المناسبة بين فلسفته هذه وبين تلك المعجزة العظيمة التى منحها الله جل جلاله لنبى جليل بقدرته الكاملة، والتى بينها فى القرآن الكريم فإن قال بأنى شبهت المعانى المغلقة بالحديد كما شبهت توضيح تلك المعانى بإلانة الحديد فإن قال هذا فلا شك إذ إنه مغرور بفلسفته وجزئى على مقام النبوة الرفيع وجسور على منصب الرسالة المنيع سبحان الله، فأين هذه المعانى النجسة الملطخة بكل أنواع الأنجاس والأرجاس من تلك المعجزة العظيمة التى وهبها الله عز وجل لنبى عظيم، فأين الأرض من السماء وأين الثريا وأين الثرى وما التناسب بين البول والغسل؟

وقد مر بك قريبًا حكم التشبيه بالملائكة ولا شك أن الأنبياء عليهم التحية والثناء أفضل من الملائكة، ولقد صرح أئمة الدين أن شخصًا هذا شأنه عار عن توقير النبوة وتعظيم الرسالة، ومستحق للزجر والنكير ومستوجب للضرب والتعزير ومعرض للسجن والحبس وقالوا يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم لأنه من الكبائر وإن لم يقصد القائل إهانة النبى ﷺ ففى «الشفا» و«نسيم الرياض».

والحاصل، أنه لن يرضَ مسلم أبدا أن يلوى أحد تلك الآية الكريمة التى تمدح أحد الأنبياء المكرمين ويلصق بذاته بالتشبيه أو التمثيل وهل يعقل أن يلبس تاج الملك الجليل القدر العظيم الشأن أحد الأساكفة أو الزبالين نسأل الله العافية.

الوجه الثالث: ومن هنا تبين أنه لا نجاة فيه ولو أردنا من كلمة «ناطق» طلبة المنطق أو قراء هذا الكتاب على تقديم «اللام» بين المضاف والمضاف إليه) لأن التشبيه كما لا يجوز لنفسه كذلك لا يجوز لغيره كما لا يخفى.

الوجه الرابع: فإن لجأ إلى التحايل وقال بأن المراد من «ناطق ألنا له الحديد» هو سيدنا داود عليه السلام نفيه فإن الإضافة حينئذ لا شك أنها فى غاية من الروعة والحسن بادئ الرأى، غير أن تلك الآفات السابقة سترجع مرة أخرى لأن فيه افتراءا مبينًا على نبى من أنبياء الله تعالى وتنقيصًا من شأنه وعلمه العزيز كما يظهر مما قررناه آنفًا فإن حاول الفرار من هذا الافتراء بدعوى أنه لم يقصد حقيقة النسبة بل الأمر هنا على التشبيه كما يقول بعض المتساهلين السفهاء للنغم الجميل بأنه نغمة داودية أو ألحان داود نقول إن لجأ إلى هذا فقد رجعت مفاسد التشبيه المارة بك آنفًا التى تكفى للوعيد والتهديد.والخلاصة أنه لا مفر من المفاسد وإن بلغنا أسباب السماوات والأرض والعياذ بالله تعالى.

تعالوا نتتبع الآن تلك القبائح التى تستلزم هذا الاسم على تقدير الوصف أى بتنوين «ناطق» وهذا التقدير لا يسع «من» فى حال من الأحوال إلا إذا ارتكبنا بعض التمحلات ولجأنا إلى بعض التكلفات النحوية بأن نجعل «من» تعليلية أى «لأجل» وعلى هذا التقدير يراد من ضمير المتكلم فى «ألنا له الحديد» مؤلف الكتاب كما لا يخفى ومن «ناطق» الطلبة أو القراء ومن الحديد المعانى الدقيقة ومن الإلانة أيضاحها وإبانتها فالمعنى المستفاد على هذا التقدير، هذا المنطق الجديد لأجل الطلبة أو القراء الناطقين الذين أوضحنا لهم المعانى الدقيقة، ومن الممكن أن لا يشعر الغر بأى محذور شرعى غير أن المحذور الشرعى الشديد لا يزال قائمًا بعد، فإن استعارة الكلام الإلهى تعالت عظمته لكلام الناس واستعماله فى هذا الموضع وأمثاله حرام وموجب للنكال والوبال حتى أفتى معظم الفقهاء بالكفر والعياذ بالله سبحانه وتعالى، ووجه التحريم بين وواضح. وليستحضر عظمة ربه تبارك وتعالى فى هذا الموضع أولا ثم ليتأمل من الذى قال «ألنا له الحديد»؟ ومن

المراد من ضمير «نا»؟ وإلى أين يشير الضمير فى «له»؟ وما هو المضمون الذى تفيده الآية الكريمة؟ ثم انظر كيف يستعمل هذا الكلام الرفيع؟ وكيف يستعير ضمير «نا» المعبر عن المولى عز وجل للمهين الحقير وكيف يلوى ضمير «له» المعبر عن نبى عظيم إلى نفسه؟ وكيف يصرف ذلك الكلام الرفيع إلى هذه التر هات والأباطيل؟ والله ورسوله أعلم بمفاسدها ولقد صدق من قال، إن تاج الملوك لا يليق بالرعاة أو الزبالين.

هذا، وإن الإنسان قلما يقتنع بقول الخصم وإن كان حقًا، لأن النفس دائمًا تنهض للدفاع عنها والانتصار لها ولذا فلستحضر فى ذهنه رجلا غيره ثم ليفكر ليسهل الاقتناع فمثلا إذا أعطى زيدٌ عمرواً مالا كثيراً ثم قال إنا أعطيناك الكوثر فلا شك أن زيداً يعد منقصا ومهينا لكلام الله عز وجل ورسوله فأين المولى عز وجل؟ وأين زيد؟ وأين المصطفى ﷺ ؟ وأين عمرو؟ وأين الكوثر؟ وأين المال؟ وكذلك لو أرسل زيد عمروا لمهمة فقال بكر من أرسلك ؟ فقال زيد، أمر من عندنا إنا كنا مرسلين، وعلى هذا قياس غيره من أراجيف جهلة الناس.

أجل، إن مثل هذا الاستعمال يستلزم الكفر والاستخفاف غير أن من العلماء من ألزم باللزام فكفر ولكن المحققين أفتوا بالحرمة لعدم الالتزام، فأتقن هذا فإنه مفيد وتحقيق المقام يقتضى المزيد وإن له عند العبد الضعيف بفضل المولى القوى اللطيف تنقيحًا وبسطا وتوضيحا وضبطا يطلب هو وأمثاله من مجموعنا المبارك إن شاء الله تعالى «العطايا النبوية فى الفتاوى الرضوية»[1]، وبهذا القدر وضح الأمر وبان الفرق بينه وبين التضمين فإنه سائغ عن الأكثرين وإن ذهب ناس إلى التحريم

---

(١) هذه عبارة عن مجموعة مباركة لفتاوى الشيخ الإمام ـ رحمه الله تعالى ـ في اثنى عشر مجلداً وهي مطبوعة متداولة بين الخواص والعوام في شبه القارة الهندية وما زالت في اللغة الأردية وهناك محاولات لترجمتها إلى اللغة العربية من قبل الطلبة الهنود النشطاء - حفظهم الله تعالى - وذلك إثراء لمكتباتنا العربية بهذه التحفة الغالية. محمد جلال رضا.

والله سبحانه بالحق عليم، ففى «الفتاوى الهندية»، جمع أهل موضع وقال «فجمعناهم جمعا» أو قال «وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا» كفر، إلى آخره ملتقطا.

وفيها أيضًا إذا قال لغيره «خانه جنان باك كرده كه جون (والسماء والطارق) «أى طهرت البيت حتى أصبح مثل والسماء والطارق قيل يكفر وقال الإمام أبو بكر بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ إن كان القائل جاهلا لا يكفر وإن كان عالما يكفر، وإذا قال حتى أصبح «قاعا صفصفا» فهذه مخاطرة عظيمة وإذا قال لباقى القدر «والباقيات الصالحات» فهذه مخاطرة عظيمة كذا فى الفصول العمادية، وفى تتمة الفتاوى من استعمل كلام الله تعالى فى بدل كلامه كمن قال فى ازدحام الناس فجمعناهم جمعا كفر وفى المحيط من جمع أهل الموضع وقال «وحشرناهم فلم نغاد منهم أحدا» أو قال «فجمعناهم جمعا» كفر وقد علله الفاضل على بن سلطان محمد المكى فقال لأنه وضع القرآن فى موضع كلامه، وفى الإعلام نقلا عن علمائنا فى فصل الكفر المتفق عليه أو ملأ قدحا فقال «كأسا دهاقا» أو فرغ شرابا فقال «فكانت سرابا» وقال باستهزاء عند الوزن أو الكيل، «وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون».

والحاصل ليس هناك أى احتمال مرضى فى هذا الاسم يقبله أرباب العقول وينجى واضع الاسم من ارتكاب الإثم وذلك بعد التتبع قدر الوسع.

ولا شك أن مثل هذا الكتاب لا يليق به إلا مثل هذا الاسم الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات.

نسأل مولانا العفو والعافية والنعمة الوافية والرحمة الكافية والهداية الشافية والعيشة الصافية إنه هو الغفور الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين، آمين.

الوجه الخامس: ألا يقصد نقصًا ولا يذكر عيبًا ولا سبا ولكنه ينزع بذكر بعض أوصافه ﷺ على طريق التشبه به أو على سبيل التمثيل وعدم التوقير لنبيه ﷺ (لتشبيه نفسه به وأين الثريا وأين الثرى) يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (لأنه من الكبائر) فإن هذا وإن لم تتضمن سبا ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصًا ولا قصد قائلها إزراءًا ولا غضًا فما وقر النبوة ولا عظم الرسالة حتى شبه من شبه في كرامة نالها أو ضرب مثل بمن عظم الله خطره وشرف قدره وألزم توقيره وبره فحق هذا (القائل) وإن درئ عنه القتل الأدب (بضرب أو لوم أو زجر) والسجن ولم يزل المتقدمون (من السلف وكبار الأئمة) ينكرون مثل هذا ممن جاء به (فليحذر من ارتكاب هذه القبائح الشديدة الوزر العظيمة الإثم فإنها ربما جرت إلى الكفر نعوذ بالله من ذلك). وقد أنك الرشيد على أبي نواس في قوله «فإن عصى موسى بكفي خصيب» (خصيب عبد الرشيد ولاه مصر استعار عصا موسى لسياسة حاكمهم وقطع ظلمهم ففيه استعارة تشبيه بديع لكن فيه سوء أدب لما فيه من جعل العصا التي هي معجزة لرسول بكف خصيب عبد من عبيد الخلفاء وجعل ذلك العبد كرسول من أولى العزم) وقال له (الرشيد لأبي نواس) يا ابن اللخناء (هذا مما تشتم به العرب واللخناء هنا أمه من اللخن وهو النتن فاستعير للفاحشة أو للمرأة لم تختتن أي يا دني الأصل ولئيم الأم أتستهزء بعصا موسى (وهي معجزة نبي عظيم) وأمر بإخراجه من عسكره من ليلته إلى آخره ملخصًا.



الإفصاح ووقع به التجاذب فى إعطاء الكفر البواح، فلفظة «عندهم» فى القول السادس ـ فربما جاء للتبرى وإن كان الظاهر ثمة خلاف ذلك عند العارف بأساليب الكلام ـ وهذان القسمان لا إكفار بهما عند المحققين، أما الثانى فواضح لأن من يشهد بالشهادتين فقد ثبت إسلامه يقين واليقين لا يزول بالشك وقد روى ذلك عن أئمتنا كما فى حاشية السيد أحمد الطحطاوى عن «البحر الرائق» عن جامع الفصولين عن الإمام الطحاوى عن الأجلة الأصحاب رضى الله عنهم.

وأما الأول فلما صرح الأئمة الأثبات أن التكفير أمر عظيم وخطر جسيم كلحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقي ولا سمين فينتقى، مسالكه عسيرة، ومهالكة كثيرة فالذى يحتاط لدينه لا يتجاسر عليه إلا بدلائل كشموس بل أجلى حتى إن المسألة إن كانت لها وجهة إلى الإسلام وتسع وتسعون وجهة إلى الكفر فعلى المفتى أن يميل إلى الوجهة الأولى فإن الإسلام يعلو ولا يُعلى وإن كان هذا لا ينفع القائل عند الله تعالى إن كان أراد وجهة أخرى.

وقد قال مولانا العلامة زين بن نجيم المصرى فى البحر، إن الذى تحرر أنه لا يفتى بتكفير مسلم[1]، أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان فى كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة ـ قال رحمه الله تعالى ـ فعلى هذا أكثر ألفاظ التكفير المذكورة لا يفتى بالتكفير بها وقد ألزمت نفسى أن لا أفتى بشىء منها إلى آخره.

قال البحر الخير الرملى، أقول لو كانت الرواية لغير مذهبنا ويدل على ذلك اشتراط كون ما يوجب الكفر مجمعًا عليه إلى آخره، تابعه عليه أبو السعود فى «شرح الأشباه».

وقد فصل الكلام فى هذه المرام تاج المحققين سراج المدققين سيدنا الوالد،

---

(١) وقد عثرت خلال مطالعتي علي رسالة نفيسة للإمام حجة الإسلام الغزالي مسماة بـ «فصل التفرقة» ضمن مجموعة الرسائل للإمام عقد فيها بابا لمناقشة قضية التكفير وضوابطه فعليك بها إن أردت التوسع فيها، محمد جلال رضا.

قدس الله سره الماجد في بعض فتاواه التي شدد فيها النكير على بعض أعلام عصره فلم يردوا شيئًا وكانوا إليه مذعنين ومنها وهو الأكثر، ما لا عذر فيه لزيد ولا مهل، ولا رويد، كالأقوال الأربعة الأول وغيرها فإنه قد ناضل فيها ضروريات الدين وخلع من رقبته ربقة اليقين ورأتى بما لا تغسله البحار ولا تساعده الحيل ولا الأعذار وقد علمت أنه إذا كان عن علم وعمد وطوع ولا ريب في وجودها ههنا فلا تنفع العزائم ولا تمنع التمائم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واعلم أن العبد الضعيف لطف به المولى اللطيف، لما وصل إلى هذا المقام وحان أوان الحكم على المتكلم بذلك الكلام اعترضت له حشمة كلمة الإسلام، فاستعظم الجزم بالإكفار أيما استعظام فرقًا من أن تكون هناك دقيقة عميقة لم يصلها فهمي أو شاذة لم يحط بها علمي ، فاستخرت المولى سبحانه وتعالى وجعلت أراجع الكتب وأقلب الأوراق حتى أكملت الجد وأنهيت الجهد حسب ما يطاق، وصرفت فيه يومين كاملين، فلم أر شيئًا تقر به العين بل كلما توغلت في تتبع الأسفار تتابع الأقوال تؤيد الإكفار إلى أن وقفت على معظم المسائل وعامة الفروع في كتب الأماثل من أصحابنا الحنفية وعمائد الشافعية وزعائم المالكية والذي تيسر من كلمات الحنبلية فإذا هي جميعا كما هي على حدة كأنها ترمي عن قوس واحد فأيقنت أن ليس للرجل محيص ولا عن الحكم بالإكفار مفيض اللهم إلا حكاية ضعيفة عن بعض علمائنا في «الجامع الأصغر» أن عقد الخلد هو المعتبر أوردها ثم ردها ولكن زدت بها تلعثما ووددت الوقوف هناك تأثما علما مني بأن الخلاف وإن كان ضعيفا ههنا كاف.

فأمعنت النظر، وأنعمت الفكر حتى فتح المولى تبارك وتعالى أن الإكفار عليه الإجماع وإنما وقع في الكفر النزاع، فلا شك ولا ارتياب أن من تكلم بكلمة الكفر طائعًا عالمًا عامدًا صاحيا فهو كافر عندنا قطعا لا ينتطح فيه عنزان ونجري عليه أحكام الردة ويحرم على امرأته أن تمكنه من نفسها ويجوز لها أن تنكح من دون

طلاق من تشاء والقائل نحبسه ثلاثا ندبا ونمهله ليرزق توبا، فإن تاب وإلا قتل ورمى بجيفة كجيفة الكلاب من دون غسل ولا كفن لا صلاة ولا دفن وقطعنا ميراثه عن مورثه المسلمين وجعلنا كسب ردته فيئا لجميع المؤمنين إلى غير ذلك من الأحكام المشروحة فى الكتب الفقهية.

أما أنه هل يكفر بذلك فيما بينه وبين ربه تبارك وتعالى فقيل لا ما لم يعقد الضمير عليه لأن التصديق محله القلب وهذه هى الحكاية التى أشرنا إليها وقال عامة العلماء وجمهور الأمناء نعم وإن لم يعقد لأنه متلاعب بالدين وهو كفر بيقين وقد قضى الله تعالى أن مثل ذلك لا يقدم عليه إلا من نزع الله الإيمان من قلبه والعياذ به سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦].

وهذا هو الصحيح الرجيح المذيل بطراز التصحيح ـ فهنالك عملت فى ذلك رسالة جليلة وعجالة جميلة تشتمل على غرر الفوائد والدرر الفرائد وسميتها «البارقة اللمعاء فى سوء من نطق بكفر طوعاء»[١] ليكون العلم علما على التاريخ كرسالتنا هذه التى نحن الآن مفيضون فيها سميناها «مقامع الحديد على خد المنطق الجديد».

فعليك بها ـ فإن حققت فيها أن إكفار الطائع هو الإجماع من دون نزاع وأقمت على ذلك دلائل ساطعة لا ترام وبراهين قاطعة لا تضام، فسكن الصدر واستقر الأمر وبان الصواب وانكشف الحجاب والحمد لله رب العالمين.

***

(١) هذه رسالة قيمة كتبها المؤلف العلامة ـ رحمه الله تعالى ـ بالعربية بأسلوبه الرائع وقد أثبتها كما هي، وهي كما ترى كفيلة بالرد على تلك التهمة التي ألصقت بالشيخ زورا وبهتانا بأنه كان متسرعا في تكفير المسلمين. محمد جلال رضا.

حكم نهائي في صاحب الكتاب الفيلسوف

اعلم أن الأقوال المذكورة بعضها حرام موجب للإثم وبعضها بدعة وضلالة ومعظمها كلمات كفرية والعياذ بالله تعالى.

وإن زيداً في ضوء الأحكام الشرعية فاسق وفاجر مرتكب الكبائر، وهو مبتدع خاسر وضال خادع بأقواله المذكورة. وفي هذا القدر يقين محض لا يشوبه شك أو ارتياب وإلى جانب هذا لا مانع من حكم الكفر والارتداد فيما نرى لأن كلمات المذاهب الأربعة الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية متفقة في هذا الباب بل فتاوى الصحابة والتابعين وأقضيتهم جميعا قد أفادت هذا المعنى، كما بيناه في «البارقة اللمعاء».

وإن سلمنا بصعوبات بالغة بأن هناك سبيلا من النحاة فعلى أقل تقدير هو كافر عند معظم علماء الدين وجماهير الأئمة الكاملين بصفة عامة وبذلك يجرى عليه أحكام الارتداد وإن مات بغير توبة فقد دخل النار، والعياذ بالله القدير البارى وهذا القدر من الحكم بين جدا لا خفاء فيه. العظمة لله، وهل يستسهل الكفر؟ ولو لم يتفق الجميع، ففي «الإعلام»، لو تشبه بالمعلمين فأخذ خشبة وجلس القوم حوله كالصبيان فضحكوا واستهزءوا كفر، زاد في الروضة، الصواب لا ولا يغتر بذلك فإنه يصير مرتدًا على قول جماعة وكفى بهذا خسارا وتفريطًا إلى آخره ملتقطًا.

وإلى جانب ذلك قد مرت بك عبارة «الشفا الشريف»، قد لا تكون بعض الأقوال كفراً في حد ذاتها غير أن تكرارها قد يؤدى إلى الكفر وصدورها مرة بعد مرة قد يصبح دليلا على أن القائل غير مهتم بالإسلام وحينئذ لا يكون من شك في كفره.

سبحان الله ! ألا يكون صدور هذه الكفريات الخالصة بكل هذه الاهتمامات والحفاوات دليلا على كفر القائل؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فمن أوجب الواجبات على زيد أن يجدد إسلامه ويتوب عن هذه الكفريات والضلالات على رءوس الأشهاد، ولا ينفع التلفظ بكلمة الشهادة باللسان سراً بالطرق العادية فقد كان يرددها قبل التوبة أيضًا بل يجب عليه أن يصرح جهراً بأن تلك الكلمات من الكفريات التى تخرج من الإسلام وقد تبت منها ورجعت إلى الحق فعندئذ تصح توبته عند أهل السلام وليؤمن من جديد بأن لا خالق سوى الله عز وجل ولا قديم غيره ـ تعالى ـ وأنه مدبر للعالم جميعا وهو على كل شيء قدير، وليشهد أن هذه العقول من مخترعات الفلاسفة الباطلة إلى غير ذلك من المواجبات التى تظهر بالمراجعة إلى ما قدمنا من المسائل ففى «البحر الرائق» أتى بالشهادتين على وجه العادة لم ينفعه ما لم يرجع عما قال إذ لا يرتفع بهما كفره كذا فى «البزازية» و «جامع الفصولين» كما يجب عليه أن يشهر ويعلن عن توبته ورجوعه عن هذه الكفريات والضلالات كما قام بنشرها وإشاعتها، فالتوبة إنما تكون حسب طبيعة الذنب فالذنب المشهور يجب أن تكون التوبة عنها أيضًا مشهورة. فقد روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد والطبرانى فى المعجم الكبير عن سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية، قلت وإسناده حسن على أصول الحنفية.

ولا أقول عن هذا الكتاب المخرب ما قال به بعض العلماء الحنفية والشفاعية فى شأن الكتب المنطقية بصفة عامة من جواز الاستنجاء بأوراقها إذا خلت عن اسم الله عز وجل ورسوله ﷺ ففى« شرح الفقه الأكبر» لو كان الكتاب فى المنطق ونحوه تجوز إهانته فى الشريعة حتى أفتى بعض الحنفية وكذا بعض الشافعية بجواز الاستنجاء به إذا كان خاليا عن ذكر الله تعالى مع الاتفاق على عدم جواز الاستنجاء بالورق الأبيض الخالى عن الكتابة. إلى آخره ملخصا.

لا أقـول ذلك ولكن أقـول إن يمـتنع عن إعـادة نشـره وأن يحـرق مـا بقى من أجزاءه وأن يسعى جـاهدًا ما أمكن لإخماد ناره وإماتـة ذكره لأن المنكر الباطل لا يستحق إلا هذا، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَـا وَالآخِـرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُـونَ﴾ [النور:١٩].

سبحان الله، إذا كان على نشر الفاحشـة هذا الوعيد الشديد المذهل فما بال نشر الكفر إذا؟ والعياذ بالله العلى العظيم.

***

خاتمة

خاتمة رزقنا الله حسنها ـ في بعض التنبيهات الزاكيات

التنبيه الأول: أيها الحبيب !لقد أهلك الإنسان العجب والكبرياء، يذنب فإذا قيل له تب، أخذته العزة واستكبر، فلو كان عاقلا لرأى الهوان والمذلة فى الإصرار على الذنب لا فى الإقلاع عنه.

يا هذا، إن الرجوع إلى الحق لا ينافى منصب العلم بل العودة إلى الحق هو أول ما يدعو إليه العلم واعلم أن الجدال أسوء من كل جهل لا سيما فى الكفريات والعياذ بالله تعالى.

يا هذا إن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، ولا شك أن الإصرار على الكفاريات سيؤدى لا محالة إلى قعر جهنم.

يا هذا، لقد ذم الله رب العالمين شخصًا فقال،﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[البقرة:٢٠٦] فبالله عليك ارحم على نفسك ولا تكن مثله.

يا هذا، إن الله عز وجل قد رد علي قوم فقال،﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رءوسهم وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، [المنافقون: ٥] وأنا أدعوك إلى الله و أن تؤمن بالله ولا تحيد عنه.

يا هذا، هل تظن أن الرجوع إلى الحق يحقر من شأنك فى أعين الناس وتخشى أن تصاب علومك الفلسفية بالكساد إذا خضعت للحق.

حاشا، إن هذا إلا وسوسة شيطانية فلا تصغ إليها واقرأ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وتب إلى الله وبذلك تكون عزيزا عند الله تعالى وأن ما ظننت أن الخلق يستهينون بك إنما هو خطأ محض، بل الناس يرونك منصفًا إن رجعت إلى الحق وإلا يرونك متكبراً شريرًا ومتعصبًا مفسدًا.

يا هذا، أتخشى أن يصير هذا المجيب أعلم منك فى أعين الناس إن خضعت للحق، حاشا لله، إن اهتدى عبد من عباد الله على يدى فإنه أقر لعينى وأسر لقلبى بألف مرة من أن يتفوق علمى على أحد لدى الخلق.

أجل أجل، إنك إن أعلنت التوبة ورجعت إلى الحق أكتب لك شهادة بفضلك واعترافا بجهلى، يا هذا، ابتعد عن التعصب قليلا وتفكر فى خلوتك هذ الإصرار على الكفر وعاقبته الوخيمة خير لك أم لوم بعض الجهال وتحقيرهم بعد توبتك ورجوعك إلى الحق.

هيهات هيهات، إن عذاب الله لشديد وإنه لآتٍ إنما أقول لمصلحتك أنت فلا تؤثر النار على العار.

اللهم اجعل نصيحتى نافعة، اللهم اهد عبدك هذا وثبت قلوبنا على دينك، يا واجد يا ماجد لا تزل عنى نعمة أنعمتها علىَّ بجاه من أرسلته رحمة للعالمين وأقمته شفيعا للمذنبين المتلوثين الخاطئين الهالكين وصلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ـ آمين ـ.

التنبيه الثانى: اعلم إن اشتعلت نار التعصب فيك ـ لا سمح الله تعالى به ـ وغفلت عن كل شيء فلا تغفل أننا لا نولى أدنى اهتمام إلى قول فلان هندى ولا علان سندى أبدًا إذا خالف عقائد القرآن الكريم أو السنة المطهرة وأن الأحكام الشرعية لا تختص بشخص دون شخص العزة لله، إن الشرع حجة على الجميع وليس أحد حجة على الشرع فمن صدر منه هذه الكفريات وأمثالها استحق الحكم بقدر السوء كائنًا من كان، إنما نتفق مع هذا أو ذاك ما لم يعارض الدين الحق وإلا فررنا منه بل ومن ظله فرار الأسد عياذا بالله.

اعلم أننا إنما نخضع للقول الذى يوافق القرآن والسنة لا لأنه قول فلان بل لأنه يوافق الصراط المستقيم، فإن كان غير هذا فسواء أكان من زيد أو عمرو أو خالد أو بكر نضرب به عرض الحائط ونتمسك بسنة رسول الله ﷺ ونلوذ بعتبته.

اللهم لا تبعدنا من بابه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، آمنين اللهم آمين.

سيدنا محمد العربى ﷺ، عزتنا فى الدارين فمن لم يتذلل لبابه فلا نصيب له من الكرامة.

التنبيه الثالث، واجب الملاحظة نافع الطلبة:

فليتعظ طلبة العلوم فى هذه البلاد فى هذا الزمان، ولينظروا إلى تلك الآفات المهلكة التى يجرها التوغل فى الفلسفة، أليست تلك الأقوال التى جاء الاستفسار عنها قد بلغت ما بلغت إلا بسبب تلك الفلسفة الباطلة فقد توقدت نارها الخفية شيئًا فشيئًا فى غفلة حتى نطحت لظاها عنان السماء.

أيها الحبيب، إن أول ما يخدع الشيطان به هو أن ينفث فى روع الطالب أن المقصود بالذات هو العلم الدينى والعلوم العقلية إنما هى وسائل وآلات تؤدى إلى الغرض المنشود والهدف المقصود فالاشتغال بها لا حرج فيها ولا بأس بها، هيهات وإن سلمنا هذا على إطلاقه، فلننظر إلى أحوال الطلبة واهتمامهم المتناقض بوسائلهم ومقاصدهم نجدهم منهمكين فى الآلة ليل نهار ناسين المقصود الرئيسى نسيانا تاما، فما أحسن الوسيلة وما أجمل الهدف.

فى الصبح تعلم فى وضوح، مع من قضيت ليلة العشق فى الظلام.

أيها الحبيب، إن كنت تتعلم العلم للآخرة، فوالله إن الفلسفة لضارة جداً فى الآخرة، وإن كنت تتعلم للدنيا، فلأن تحصل على الشهادة الثانوية أنفع لك من هذا فإنه قد ينيلك وظيفة تكسب بها الكفاف.

أيها الحبيب، بالله عليك، أنصف ولا تظلم، إن سنة المصطفى ﷺ تقول إن العلم تراث الأنبياء عليهم السلام والعلماء ورثة الأنبياء، فانظر هل هو ذلك العلم الذى عكفت عليه أو هو هذا العلم الذى أهملت وغفلت عنه، انظر بعين الإيمان وقل بلسان الإسلام، هل نيابتك عن المصطفى ﷺ خير أم تقليدك الأعمى لابن سينا والفارابى، انظر الطريق من أين يبدأ وإلى أين ينتهى؟

أيها الحبيب إن الشيطان لينفث فى قلوب هؤلاء بأن العلوم الفلسفية هى التى تليق ببذل الحياة الغالية فيها لأن مداركها عميقة ومسالكها دقيقة فإن ظفرت بها فالعلوم الدينية تأتى إليك عفوا بلا جهد.

غير أن هذا والله خطأ محض، فإنك لم تذق حلاوة هذه العلوم الربانية وإلا لكنت عرفت أن العلوم هى العلوم الدينية التى تحمل فى طيها من الدقائق واللطائف والمشوقات والرغائب أكثر بألف مرة مما فى هذه العلوم الفلسفية غير أن الناس أعداء لما جهلوا.

دع عنك هذا كله فقد مرت آلاف السنين وسلسلة التدقيقات النفسية والتحقيقات الرائعة متواصلة لا تكاد تنتهى، ولم ينقح مبحث حتى الآن، ولم تصف قضية بعد وقد قال الناس إن العلم ينضج بتلاحق الآراء غير أن الأمر هنا بخلافه تماما بل تعقدت المسائل هنا بتلاحق الآراء.

ألا ترى أن كل واحد من المتقدمين والمتأخرين يأتى مع كل احتشام بتحقيقاته كأنها الحق الجلى ولم يفارقه الحق الصريح والصواب الرجيح ولو لحظة واحدة فلما يخلفه الآخر يأتى بتوهماته الجديدة بنفس الاحتفاء والاهتمام فتسفه العاقل السابق وربما يجعل هذا الجديد ذلك القديم عقبا على رأس، ولا تكاد تعرف هذه السلاسل أى حد حتى يأتى أمر الله والمعضلات كما هى لم ينقح شيء منها.

كل من جاء بنى دارا ، ومات عنها فخلفه الآخر يعمرها

فأخبرونى ما هى نتيجة هذه الضوضاء؟ وما حصاد هذه المعارك الحامية؟

فلما حان الأجل وقرب الموت غاب عنه كل شيء وتبين أن كل ما تعلم إنما كان أسطورة من الأساطير لا حقيقة لها.

فمنهم من يعض على يديه تحسرًا وندمًا فى حالة الاحتضار ويقول يا ويلتى

ضاع عـمرى ولـم أحقق شـيئًا سوى أن كل ممكن مـحتاج وأن الإمكان أمـر عدمى فرحل من هذه الدنيا خاوى الوفاض[1].

الأمر الثـانى، أن حصول العـلوم الدينية بمجرد حـصول العلوم الفلسـفية عـفوا وتلقائيا لا شك وهم باطل فضيح لا وجود له إلا فى أذهانكم فقط صحيح ما يقال أن الاحتيـاج إلى الشىء يرفع من قيمتـه ويعلى قدره، ولتكلف أحد من الفـلاسفة بأن يحل عشر مسـائل دينية فقط عن طريق تفلسفه تعرف مـدى أهمية هذه العلوم الفلسفية وإلا فـاللسان مطلق العنان فى سعة الميدان، والمثل مـشهور لا يصف أحد روبه بالحموضة.

أيها الحـبيب، إن هذه المـناهج الدراسيـة التى تدرس للطلبة فى هذه البـلاد، ربما يظهنا السفـيه منتهى العلوم وغايتـها، غير أن الأمـر على عكس ذلك تماما لأن هذه المقررات تشتمل على مـبادئ العلوم الأساسية ويقصد من ورائها تنمـية الاستعداد والملكة لدى الطلبـة، أما العلم الحـقيقـى فبعـيد جـداً، ولقد صدق مـن قال، يجب السفر الطويل لتكتمل الخبرات العلمية.

ألا ترى أن الطالب المسكين قد هضم الـشفا[2]، والإشارات بأكـملها ولـم يدر بعد من أين تكـتسب أصول الدين، ولـم يعـرف ما يجب اعـتقاده فى شـأن الله عز وجل ورسوله ﷺ فإن علم شيئا فربما عن طريق السماع والتقليد، أما مسائل الحلال والحرام فلا تسـأل عنها، من المؤسف حقًا أن واضع المناهج الدراسيـة إنما قرر عدداً زهيـداً من الكتب الدينية وأكـثر من الكتـب المنطقيـة ليتـعود الطلبـة على التفكـير

(١) وما أحسن ما يصور هذه الحيرة الفلسفية في آخر لحظات الفيلسوف في الحياة:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرحت طرف بين المعالم

فلم أر إلا واضعا كـف حـائر على ذقن أو قارعا سن نادم (محمد جلال رضا)

(٢) الشفا والإشـارات كتابان شهيران لابن سينا في الفلسفـة والمنطق كان الطلبة الهنود يدرسـونهما ضمن المقررات الدراسية بشراهة في عصر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ (محمد جلال رضا).

والتأمل لئلا تضرهم فيما بعد الأوهام الباطلة بعد رسوخ المبادئ الدينية بيد أن الأمر قد انعكس كليًا فاجتاحتهم الآفات الفلسفية والاصطلاحات الحرة مثل لم، ولا نسلم، أما المبدأ الأساسى فقد قامت القيامة عليه «أيها العزيز» لقد روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقى وعبد بن حميد والبغوى بأسانيد صحيحة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واسغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾، ألا فاحذر لئلا تشكل هذه الفلسفة المزخرة نكتة سوداء فى قلبك ووصمة ظلماء فى ذهنك بحيث لا تبقى فيه سعة لاستقبال العلوم الحقة الصادقة الربانية بعده هل تظن أن العلوم الدينية إنما تحصل بمجرد حصول العلوم الفلسفية تلقائيًا؟ حاشا، بل الواقع على العكس تماما، فلو استقرت هذه الأوهام ورسخت أقدامها فى قلبك فلن تتطرق إليه العلوم الربانية أبدًا لأنها نور والنور لا يتألق إلا فى المراة الصافية المصقولة.

أيها الحبيب، لا يزدرى العلوم الربانية المتوغلون فى الفلسفة العاكفون عليها إلا بسبب تلك النكتة السوداء وبذلك يستهزوون بعلماء الدين ويستجهلونهم، ويرون لقب العلم وقفا عليهم.

لو كانت مرآة قلوبهم صافية مصقولة لرأوا أن هؤلاء العلماء الربانيين هم النواب عن المصطفى ﷺ وهم الورثة الحقيقيون له، وما أنفس تلك الثروة التى يحملونها فى قلوبهم والتى أنزل المولى تبارك وتعالى لأجلها الكتب وقضى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعمارهم لتبليغها إلى الناس وتفهيمها لهم، فلا شك أنهم عمائد الإسلام وطرق الجنة وأرواح الهداية، وهم محبوبون ومرضيون لديه تعالى، أما الذين ظلموا يستهزءون بهم فسيذوقون وبال أمرهم اليوم أو غدا والغد قريب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

أيها الحبيب، إن النفس المغرورة بذاتها قد ضلت فى ملذات أقول واستغرقت فيها فنسيت تلك المتع الدائمة التى أودعها الله تعالى فى أحاديث الرسول ﷺ ومدارستها وغفلت عن تلك الحلاوة التى تسر القلوب وتقر العيون.

هيهات أين ذلك الفن الذى يقال فيه «أنا أقول، أو ابن سينا قال» مما يقال فيه «قال الله عز وجل» أو قال الرسول ﷺ؟

اعلم أن نفس الفرق الذى تجده بينك وبين المصطفى ﷺ هو الفرق بين «أقول» و«قال» وكذلك التفاوت بين العلمين،

لله در العالم القرشى سيدنا الإمام الشافعى رضى الله عنه الذى قال:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه فى الدين

العلوم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين

كل ما قال الله عز وجل وقال الرسول ﷺ هو العلم وما سواهما فضلة فاشتغل بالفضلة أيها الفضول، أيها العزيز، فكر بالله عليك هل تسأل يوم القيامة عن العقائد والأعمال أم تسأل عن الكل الطبيعى أهو موجود فى الخارج أم غير موجود والزمان قار أو غير قار وهل الحركة بمعنى التوسط الموهوم، هل تسأل عن هذا أو ذلك.

أيها الحبيب، إنى لا أمنع عن تعلم المنطق والفلسفة الإسلامية وأقسامها الجائزة مثل الرياضيات والهندسة.

تعلّم ولكن بقدر الضرورة ولا تنهمك فيها كليّة فتغفل عن المقاصد الأساسية بل عليك بالعلوم الدينية فإنها الصراط المستقيم، هذا، ولا إكراه فى الدين والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] .

وقع الفـراغ من تسويد هـذه الأوراق لسبع خلون من الشـهـر السابع من العـام الرابع من المائة الرابعة من الألف الثانى من هجرة سراج الأفق إمام الخلق نبى الرفق ذى العلـم الحق الحكيم الربانى، صلوات اله تعالى وسلامه عـليه وعلى آله وصحبه وكل مشتاق إليه برحمتك يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين، والله تعالى أعلم وعلمه جل مجده أتم وأحكم.

كتبه عبده المذنب أحمد رضا عفى عنه بمحمـــد المصطـــفى النبى الأمى ﷺ.

لله درّ المجيب حيث أتى بتحقيق أنيق نمقه العبد المذنب الأواه مـجهد لطف الله خادم شريعة رسول الله ﷺ ـ محمد لطف الله ١٢٩٨هـ.

لا شك أن هذه المعانى التى نـقلها المجيب عن الرسـالة «المنطق الجديد» مخـالفة للشرع الشـريف ومعارضة لعـقائد المسلمين الحـقة سلفا وخلفا ولقـد أبان المجيب المصيب عن مفاسدها وأظهـر قبائحها على أحسن وجه فجـزاه الله سبحانه وتعالى عن المسلمين أحسن الجزاء.

محمد إرشاد حسين أحمدى ١٢٨٤هـ.

***



التحبير بباب التدبير

تأليف

مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

١٢٧٢هـ/١٣٤٠هـ=١٨٥٦م/١٩٢١م

ترجمه من الأردية

محمد جلال رضا الهندي

قسم التفسير

كلية أصول الدين

جامعة الأزهر الشريف

القاهرة . مصر



إهداء

إلى روح الإمام العارف بالله سيد العارفين
وسند السالكين وقدوة الأولياء وحجة
الأصفياء، مولانا الشاه السيد آل رسول المارهروي
رحمه الله تعالى وقدس سره.
الذي أنار آلاف المسلمين من الخواص والعوام ببركاته
الروحانية وفيوضه الربانية، وشحنهم بشحنات إيمانية قوية
عن طريق التزكية والتحلية على المنهج القرآني الحكيم
والطريقة النبوية المطهرة.
ومنح الأمة الإسلامية من مريديه أعظم عالم رباني
وطبيب روحاني أعني الشيخ الإمام أحمد رضا خان
الحنفي القادري.
فجزاهما الله خير الجزاء ورفع درجاتهما في
أعلى عليين مع النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين.



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

أما بعد:

نستفسر السادة العلماء عن حكم شخص يدعى خالداً الذى يعتقد أن كل خير وشر بقضاء الله عز وجل وقدره وإلى جانب ذلك يستحسن العمل والتدبير فى الأمور الدينية أو الدنيوية. غير أن وليداً يكفر خالداً بناءاً على استحسانه العمل والتدبير واعتقاده بالعمل والحركة ويقاطعه مقاطعة كلية ويعرض عن التسليم عليه ورد السلام إذا سلم عليه خالد، ويرفض التدبير فى كل أمر من الأمور ويرى التدبيرات من الواهيات الباطلة. ويقول إن الذين يعلّمون أولادهم اللغة العربية أو الإنجليزية إنما يضيعون الوقت دون جدوى. بدعوى أن التعليم والتعلم أيضًا من التدبير.

والمطلوب توضيحه من السادة العلماء، ما هو الحكم الشرعى فى تكفير وليد خالداً؟، وهل خالد كافر كما زعم وليد؟

«المستفتى الشيخ يار خان ٢٠ ذو الحجة ١٣٠٥هـ»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قدر الكائنات، وربط بالأسباب المسببات، والصلاة والسلام على سيد المتوكلين، سرًا وجهرًا، وإمام العالمين والمدبرات أمرًا وعلى آله وصحبه الذين باطنهم توكل وظاهرهم فى الكد والعمل.

لا شك أن خالدًا محق فى اعتقاده وعقيدته عقيدة أهل الحق من المسلمين بأن كل ما يحدث فى العالم من صغير أو كبير إنما يحدث على ما مضى من قضاء الله عز وجل وقدره فى الأزل. قال عز وجل : ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣].

وقال تعالت عظمته: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢].

وقال عز وجل ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث.

ولا يعنى الإيمان بالقضاء والقدر إبطال التدبير[١]، فإن هذه الدنيا عالم الأسباب وقد ربط الرب جل مجده المسببات بالأسباب بحكمة بالغة وقد جرت السنة الإلهية فى هذا العالم أن يحدث المسبب بعد حدوث السبب، واعلم أن التوكل على القضاء والقدر والاعتماد عليها ليسا إلا من دأب الكفار الجاحدين كما أن رفض التدبير وتعطيله من أفعال الضالين المكذبين، أو من شطحات المجانين الكاملين، حيث إنه يستلزم تكذيب المئات من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، كما يطعن ذلك فى ذوات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جميعًا ويقدح فى شأن الأئمة الأخيار والأولياء الصالحين جيمعا.

ومن يتسنى له توكل كتوكل حضرات المرسلين، ـ صلوات الله وسلامه عليهم

---

(١) وللمؤلف العلامة رسالة رائعة في حتمية الإيمان بالقضاء والقدر على غرار هذه الرسالة التي بين أيدينا تسمى بـ «ثلج الصدر لإيمان القدر» محمد جلال رضا.

أجمعين - وهل من أحد أوثق إيمانا بقضاء الله تعالى وقدره، من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام؟ ومع ذلك قد أخذوا بالأسباب وعلموا الناس ذلك بل رغبوا فيه بأنواع الترغيبات بل وَسَعوا فى كسب الرزق الحلال الطيب بذواتهم.

١ـ فها هو سيدنا داود ﷺ يصنع الدروع بيديه كما أخبرنا المولى عز وجل بذلك في القرآن الحكيم: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء :٨٠].

٢ـ وقال المولى عز وجل : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ:١٠/ ١١].

٣ـ وقد قام سيدنا موسى ﷺ برعى الغنم على أجرة لسيدنا شعيب ﷺ لمدة عشر سنوات فقد أخبرنا بذلك المولى فقال: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[القصص ٢٧ , ٢٨ , ٢٩]. وها هو سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ يسافر إلى بلاد الشام بمال السيدة خديجة - رضى الله تعالى عنها - على سبيل المضاربة ليتجر فيه، ولا يخفى على من له أدنى إلمام بالتاريخ أن أمير المؤمنين الخليفة الثالث سيدنا عثمان الغنى، وسيدنا عبد الرحمن بن عوف كانا من التجار المشهورين فى عهدهما، وها هو سيدنا الإمام أبو حنيفة النعمان ـ قدس سره ـ يباشر تجارة الأقمشة.

بل وليد نفسه الذى يرفض التدبير بأسره؛ هل هو فى معزل عن التدبير فى الواقع

فى حياته اليومية؟ افترضنا أنه لا يباشر زراعة أو تجارة ولا يشغل نفسه فى وظيفة أو مهنة سلمنا أنه فى غنى عن هذا وذلك إلا أنه يقوم بالطبخ أو يطلب تحضير الوجبة من غيره وربما يطحن ويعجن ولا يستغنى عنه بشر فإذا كان كذلك فقد ارتكب التدبير الذى حاول الفرار منه، دع عنك هذا أيضًا ولنفترض أن الطعام يأتى إليه مطبوخًا جاهزًا بدون طلب أو إشارة أو إيماء غير أنه يتناول وجبته باليد ويرفعها إلى الفم ويمضغ ويبتلع، وهذا أيضًا من التدبير فإن كان وليد حاسما فى إبطال التدبير وجادًا فى تعطيل السبب فليهمل هذه الأسباب كلها جملة وتفصيلا.

لأن الحياة إذا كانت مقدرة فى قضاء الله تعالى عز وجل وقدره فسيعيش رغم أنفه شاء أم أبى أكل أو لم يأكل.

كما يمتلأ البطن تلقائيًا، ويصل الغذاء إلى المعدة بالقضاء الإلهى بدون حركة من العبد، ولا يخفى عليك أن الماء ليس بمرو فى حد ذاته وليس الطعام بمشبع من نفسه عند أهل السنة والجماعة، بل هذه كلها من الأسباب العادية التى ربطها الخالق القدير الحكيم عز وجل بمسبباتها ويخلق الرى والشبع عقب تناولهما على سنته التى أجراها فى هذا الكون وإلا فلن يروى العطشان وإن شرب الجرار ولن يشبع الجوعان وإن التهم الأطنان وقد علمت ما يحدث مع مرض الاستسقاء وجوع البقر فإن الماء الذى كان يرويه قبل لم يعد يجدى شيئًا معه، والطعام الذى كان يشبعه قبل لم يعد يغنى من الجوع شيئًا واعلم أن المولى عز وجل لو شاء لن يقترب الجوع أو العطش سنوات وإن لم يأكل ولم يشرب مطلقًا ألا ترى أن الله تعالى سيحيى المؤمنين بدون طعام وشراب فى زمن الدجال اللعين كما أن الملائكة يعيشون بلا حاجة إلى الأكل والشرب غير أن ذلك يعد فى الإنسان من قبيل الخوارق وليس ذلك على الله بعزيز، وبذلك لا يكون إبطال التدبير إلا ناشئًا عن الجهل والحماقة ومن هنا قال الفقهاء لو مات أحد بسبب التواكل الكاذب على قضاء الله تعالى وقدره، مهملا الأكل والشرب مات ميتة محرمة ويلقى الله تعالى

وهو عليه غاضب ولا يخفى أن الموت أيضًا بقضاء الله تعالى وقدره ومع هذا:

٤ـ قد قال الله المولى عز وجل : ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] ولله در القائل أن الموت بالقضاء ولكن لا تلق بنفسك فى التهلكة سلمنا أن وليدًا قائم على عهده كالجبل الراسخ وقد هجر الأسباب بأسرها فعلا وقد ودع التدبير وداعا لا عودة فيه فلم يلجأ إلى سبب لا إشارة ولا كناية وعزم على نفسه ألا يأكل فى حال من الأحوال وإن أدى ذلك إلى الموت والهلاك اعتمادًا على قضاء الله وقدره ولا شك والحال هذه أن يلجأ إلى المولى عز وجل بالدعاء والطلب وبذلك يكون قد أخذ السبب من حيث لم يدر أنه أخذ السبب، لأن الدعاء ليس مؤثرًا بذاته وإنما هو سبب لحصول المراد، ولم نعن بالتدبير إلا هذا.

٥ـ يقول المولى عز وجل : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠] وربنا تبارك وتعالى قادر على تحقيق المراد بدون دعاء أو طلب إلا أنه وجه العباد إلى هذا التدبير وأكده بتأكيد بالغ ففى الحديث النبوى الشريف:

ـ١ـ «من لم يدع الله غضب عليه» رواه الأئمة أحمد فى المسند وأبو بكر بن أبي شيبة في المصنف واللفظ له والبخارى فى الأدب المفرد، والترمذى فى الجامع وابن ماجه فى السنن والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة رضى الله عنه.

بل الخلافة والسلطة والقضاء والجهاد والحدود والقصاص وغيرها من الأمور الشرعية الأخرى إنما هى من التدبيرات التى فرضها الله عز وجل لتنظيم شئون العالم وإشاعة الدين وردع المفسدين المعتدين لتعود منافعها للخلق.

٦ـ قال تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

٧ـ قال عز وجل ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

٨- وقال تعالت عظمته ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

٩- وقال جل جلاله ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ [الحج:٤٠].

فقد لاحظت فى هذه الآية الكريمة أن الجهاد إنما فرض ليقضى على الفتنة ويخلو الطريق للدين الحق ولينتشر ضياءه فى ربوع العالم ولولا الجهاد لفسدت الأرض، ولانطمست المساجد والمعابد.

١٠- وقال المولى تعالى شأنه: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣] الفتنة أى ظهور الكفر وفساد كبير أى ضعف الإسلام.

١١- وقال عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩] ففى القصاص حياة لأنه يكف أيدى المفسدين عن التطاول والاعتداء وبذلك تحقن دماء الأبرياء ولأجل ذلك أمر الله عز وجل أن يشهد عذاب المعتدين جماعة من المسلمين ليكون ذلك موعظة وذكرى لهم.

١٢- فقال تعالت عظمته: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢] بل الصلاة والصيام والحج والزكاة وغيرها من العبادات البدنية والمالية أيضًا تدبير من التدابير الدينية الشرعية وسبب من أسباب إرضاء المولى عز وجل ووسيلة من وسائل الثواب الجزيل وطريق من طرق النجاة من غضبه وعذابه.

١٣- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ [الإسراء:١٩].

وقال المولى عز وجل : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]، وقد أوجب المولى عز وجل السعي على العباد مع أن كلا ميسر لما خلق له لحكمة بالغة وقال المولي عز وجل : ﴿فسنيسره لليسرى﴾ [الليل:٧] وقال تعالى شأنه : ﴿فسنيسره للعسرى﴾ [الليل:١٠].

ومن هنا قال النبى ﷺ ما أخرجه الأئمة أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم عن أمير المؤمنين على ـ كرم الله تعالى وجهه ـ

ـ ٢ـ قال: «كان النبى ﷺ فى جنازة فأخذ شيئًا فجعل ينكت به الأرض فقال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل (زاد فى رواية فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة) فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾ الآية ومن هنا اتضح أن إهمال التدبير مطلقًا يؤدى إلى إلغاء الدين وتعطيل الشرائع، وبطلان إنزال الكتب وإرسال الرسل وضياع أداء الفرائض واجتناب المحرمات والعياذ بالله تعالى.

وبذلك يبقى الإنسان مطلقا العنان، فيختل نظام الدنيا والآخرة جملة واحدة كلا ثم كلا، إن التدبير مستحسن بلا ريب بل بعضه مندوب ومسنون كالأدوية والأدعية.

والأحاديث التى وردت فى باب الدعاء قد بلغت مبلغ التواتر حتى قال النبى ﷺ فى أهمية الدعاء وأثره الفعال:

«لا يرد القضاء إلا الدعاء» (والمراد هنا من القضاء هو القضاء المعلق) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم بسند حسن عن سلمان الفارسى رضى الله عنه.

ـ ٣ـ وقال سيدنا المصطفى ﷺ في حديث آخر «لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل إن البلاء ينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة» (أى يمنع الدعاء نزول البلاء) رواه الحاكم والبزار والطبرانى فى الأوسط عن أم المؤمنين الصديقة رضى الله تعالى عنها ـ قال الحاكم صحيح الإسناد. ومن أراد

مـزيد الاطلاع على الأحاديث المجملة والمفصلة الكلية والجزئية فى باب الدعاء فعليه بمؤلفات العلماء الكرام من «الترغيب» و«الحصن» والعدة و«الصلاح» وغيرها.

ـ ٤ـ وقال النبى ﷺ : «تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواءً غير داء واحد الهرم» أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك رضى الله عنه بسند صحيح وقد وردت أحاديث كثيرة بشأن تداوى النبى ﷺ بالأدوية وتوجيه أمته إلى المئات من الأدوية الناجعة للأدواء المختلفة كما هو مسطور فى مختلف الفنون الحديثية من الطب النبوى والسيرة وغيرها بل التدبير يصبح فريضة حتمية فى بعض الحالات الخطيرة كالأكل والشرب بقدر ما يسد الرمق حتى أبيحت الميتة والخمر فى حالة المخمصة وإقامة الفرائض والاجتناب عن المحرمات وكذلك مباشرة ما من شأنه صيانة النفس من الهلاك وطلب الكسب الحلال الطيب لنفسه وعياله فقد قال المصطفى ﷺ.

ـ ٥ـ «طلب الكسب الحلال فريضة بعد الفريضة» أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن مسعود رضى الله عنه.

ـ ٦ـ وقال ﷺ : «طلب الحلال واجب على كل مسلم» أخرجه الديلمى بسند حسن عن أنس ابن مالك رضى الله عنه ولذلك وردت فضائل كثيرة لطلب الكسب الحلال الطيب وقد قال النبى ﷺ كما فى مسند أحمد وصحيح البخارى.

ـ ٧ـ «ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده» أخرجاه عن مقدام بن معدى كرب رضى الله عنه.

ـ٨ـ «وقال النبى ﷺ : «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم» أخرجه البخارى فى التاريخ والداري وأبو داود والترمذي والنسائي عن أم المؤمنين الصديقة ـ رضي الله تعالى عنها ـ بسند صحيح قد سئل رسول الله ﷺ : «أى الكسب أفضل؟ فقال:

ـ ٩ , ١٠ , ١١ , ١٢ , ١٣ ـ «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور» (والمراد من البيع المبرور هى التجارة التى تخلو عن المفاسد الشرعية) أخرجه الطبرانى فى الأوسط والكبير بسند الثقات عن عبد الله ابن عمر وأحمد والبزار عن أبى بردة بن خيار وأيضًا هذان عن رافع بن خديج والبيهقى عن سعيد بن عمير مرسلا والحاكم عنه عن أمير المؤمنين عمر الفاروق رضى الله عنه وروى أن رسول الله ﷺ قال:

ـ ١٤ـ «إن الله يحب المؤمن المحترف» أخرجه الطبرانى فى الكبير واليبهقى فى الشعب وسيدى محمد الترمذى فى النوادر عن ابن عمر رضى الله عه وقد رورد أن رسول الله ﷺ قال :

ـ ١٥ , ١٦ , ١٧ـ من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له» أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن أم المؤمنين الصديقة ومثل أبى القاسم الأصبهانى عن ابن عباس وابن عساكر عنه وعن أنس رضى الله عنه وقال: ﷺ

ـ ١٨ـ «طوبى لمن طاب كسبه» أخرجه البخارى فى التاريخ والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن والبغوى والبارودى وأبناء قانع وشاهين ومندة كلهم عن ركب المصرى رضى الله عنه فى حديث طويل قال ابن عبد البر حديث حسن قلت أى لغيره.

وقال المصطفى ﷺ :

ـ ١٩ , ٢٠ ـ «الدنيا حلوة خضرة من اكتسب منها مالاً فى حله وأنفقه فى حقه أثابه الله تعالى عليه وأورده جنته» أخرجه البيهقى فى الشعب عن ابن عمر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قلت والمتن عند الترمذى عن خولة بنت قيس امرأة سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه بلفظ «إن هذا المال خضرة حلوة فمن أصابه بحقه بورك له فيه» قال الترمذى حسن صحيح قلت وأصله عن خولة عند البخارى مختصراً.

وقال ﷺ:

ـ ٢١ـ «إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة يكفرها الهموم فى طلب المعيشة» رواه ابن عساكر وأبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ـ ٢٢ـ رأى الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ رجلا يسرع نحو عمله فقالوا : يا رسول الله ﷺ «ليت هذا السعى فى سبيل الله» فقال ﷺ : ـ ٢٢ـ «إن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله وإن كان يخرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى رياءاً ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان» رواه الطبرانى عن كعب بن عجرة رضى الله عنه ورجاله رجال الصحيح ولذلك ورد نهى واضح عن البطالة وترك الكسب.

فقال المصطفى ﷺ:

ـ ٢٣ـ «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، حتى يصيب منهما جميعا، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة، ولا تكونوا كلاً [(١)] على الناس، يصيب منهما جميعا فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة.ولا تكونوا كلا على الناس » رواه ابن عساكر عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وقد تبين من خلال هذه الأحاديث الشريفة أن طلب الكسب الحلال الطيب والسعى فيه لا ينافيان التوكل على الله عز وجل بل السعى والعمل مما يرضى المولى عز وجل غير أن شأن المؤمن أن يعمل أولا ثم يتوكل على المولى القدير جل جلاله.

ـ ٢٤ ,٢٥ـ فعن عمرو بن أمية الضمرى الكنانى قال: «يا رسول الله أرسل راحلتى وأتوكل قال: بل قيد وتوكل» أخرجه البيهقى فى الشعب بسند جيد عن عمرو بن أمية الضمرى والترمذى فى الجامع عن أنس رضى الله عنه واللفظ عنده «أعقلها وتوكل». انظر كيف أمر النبى ﷺ بالتدبير والتوكل وجمعهما فى كلمتين

(١) كان قد سقط من هذا الحديث الشريف بعض الكلمات في أصل الكتاب وقد كملناه كما في مرجع الحديث الأصلي. محمد جلال رضا.

من كلامه الجامـــع وفيه قال مولانا ـ قدس سره ـ فى المثنوى الشريف: «توكل على الله عز وجل ولكن حرك اليدين والرجلين لأن رزقك أسرع إليك منك إليه».

وقد أمرنا المولى عز وجل فى القرآن العظيم بالطلب والسعى وحث على التدبير والكسب ووجهنا إلى الأخذ بالأسباب قال تعالى :

١٤ـ ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٧, ١٩٨].

وكان أهل اليـمن يحجون ولا يتزودون ويقـولون نحن متوكلون فـأنزل الله عز وجل هذه الآية وكان بعض الصحـابة الكرام يتحرجون فى مـوسم الحج ويخشون فوات الإخلاص فى الحج فنزلت :﴿ليس عليكم جناح﴾.

وكذلك يزخر القرآن الكريم بالآيات المباركة التى تدعو إلى ابتغاء فضل الله عز وجل ومنها يقول المولى تبارك وتعالى:

١٥ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة ٣٥].

فقـد رأيت أن الله عز وجل قـد وضح أن الفلاح فى ابتـغاء الوسيلة فـلو كانت الأسباب مـعطلة مهملة لما كانت هناك حاجـة إلى ابتغاء الوسيلة، بل التـدبير أيضًا من القـدر وليس بخارج عنه إذا رأينـا المسألة بعـين الإنصاف، والآخـذ بالأسبـاب ليس بخارج على القدر ولا هو بمتعد على القضاء.

وقد سُئل النبى ﷺ هل ينفع الدواء من القَدر قال:

٢٦ـ الدواء من الـقـدر ينفع من يشـــاء بما يشـــاء «رواه ابن السنى فـى الطب والديلمى فى مسند الـفردوس عن ابن عباس رضى اللـه عنه وصدره عنه عند أبو نعيم والطبرانى فى المعجم الكبير.

٢٧ـ أن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى الشـام، حتى إذا كـان بسرغ

لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس فقال عمر ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تُقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عنى، ثم قال: ادع لى الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لى من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء فنادى عمر فى الناس: إنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

أخرجه الأئمة منهم مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى عن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ

أجل! إن انهماك الإنسان كليًا فى تنظيم الأسباب وتقويمها لمصالحه والاستحواذ على حطام الدنيا بالحلال والحرام بدون اهتمام بالمشروع وغير المشروع وجمع الدنيا بأى طريق متفق لا شك مذموم وممنوع ولا يرتكب هذا إلا من نسى القضاء والقدر وغفل عن مسبب الأسباب واعتمد على التدبير وأسند ظهره إليه وهنا يبادر الشيطان بحيله وينفخ فى أذنيه ويملى عليه مكايده لو عملت هذا فستنال مرامك وإلا ترى وجه الفشل الكالح وحينئذ ينسى الإنسان قضاء الله وقدره ويستسلم للوساوس الشيطانية فيجهد نفسه فى اتخاذ كل سبب يراه خادمًا لمصلحته فيركب الهوان والدناءة ويتذرع بالتملق والتحايل ويلجأ إلى المكر

والخديعة ولم يدر المسكين أن هذا الحرص والشره لا يؤديان إلى شيء ولن ينال إلا ما قد كتب له في الأزل فإن الرزق الذي تكفل الله تعالى به لن يخطأه إلى غيره وإن حلى نفسه بعلو الهمة والتزم صدق النية واحترم كرامته وتمسك بأحكام الشرع غير أن حرصه وشرهه قد أهلكا في الدنيا والآخرة حتى خسر الدنيا والآخرة.

وإن جمع بعض الحطام من هذه الدنيا الفانية عن طريق الغش والتزوير والمكر والخديعة وبعد إراقة ماء الوجه فتبًا لهذه الثروة مهما كانت ضخمة ولله در القائل:

بئس المطاعم حين الذل تكسبها   القدْر منتصب والقدر مخفوض

ولذا قال المصطفى ﷺ:

ـ٢٨ـ «أجملوا في طلب الدنيا فإن كلا ميسر لما كتب له منها» رواه ابن ماجه والحاكم والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن وأبو الشيخ في الثواب عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه بإسناد صحيح واللفظ للحاكم وقال ﷺ :

ـ ٢٩، ٣٠ـ «يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها فإن أبطأ منها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم رواه ابن ماجه واللفظ له وقال صحيح على شرطهما وبسند آخر صحيح على شرط مسلم وابن حبان في صحيحه كلهم عن جابر بن عبد الله وبمعناه عند أبي يعلى بسند حسن إن شاء الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ـ ٣١ , ٣٢ , ٣٣ , ٣٤ـ وقال ﷺ : «إن روح القدس نفث في روحي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته» أخرجه أبو نعيم في الحلية واللفظ له عن أبي أومامة الباهلي والبغوي في «شرح السنة» و «البيهقي» في الشعب والحاكم في المستدرك عن بن مسعود والبزار عن حذيفة بن اليمان ونحوه للطبراني في الكبير عن الحسن بن على أمير المؤمنين

رضى الله عنه غير أن الطبرانى لم يذكر جبريل عليه السلام وروى أنه ﷺ قال:

ـ ٣٥ـ «اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير» رواه تمام فى فوائده وابن عساكر فى تاريخه عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه.

فقد لاحظت أن هذه الأحاديث النبوية الشريفة تدعو إلى السعى والطلب وتندب إلى التدبير والعمل ولكن تحث إلى جانب هذا على التزام الشريعة والتحلى بعزة النفس والتمسك بالعفة.

أى لا تشتغلوا بترتيب الأسباب ذاهلين بل عليكم العمل باليد والقلب معلق بذكر المولى الكريم أيديكم بالأسباب وقلوبكم بخالق الأسباب فى الظاهر هنا وفى الباطن هناك جوارحكم بالأسباب وبواطنكم بمسبب الأسباب وعلى هذا المنهج ينبغى أن تسير عجلة الحياة هذه هى طريق الهدى وبها قد رضى الإله رب العالمين وهذه هى سنة الأنبياء وهذه هى سيرة الصالحين ـ عليهم جميعا الصلاة والثناء ـ ومهما يكن من أمر فإن هذا هو المنهج القويم فى هذا الشأن وهذا هو الصراط المستقيم وما سواه من نسيان القضاء والقدر أو إبطاله وتعطيل التدبير وإهماله فما ذلك إلا ضلال مبين وجنون فاضح والعياذ بالله رب العالمين.

اعلم أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التى تندب إلى السعى والعمل كثيرة جدًا بحيث يتعذر إحصائها ويعسر استيعابها بل لا أخشى أن أدعى بأن عدد الآيات والأحاديث فى هذا الباب ربما يتجاوز عشرة آلاف لو بذلنا شيئًا من الجهد إن شاء الله تعالى غير أنه لا داعى إلى ذلك:

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولا نرى من جدوى فى الإسهاب والتطويل فى هذه المسألة البينة التى يتوقف عليها نظام العالم أليس هذا المؤلف بكاف الذى أورد فيه العبد الفقير خمس عشرة آية من الآيات القرآنية وخمسة وثلاثين حديثًا أى ما بلغ مجموعها إلى خمسين

نصًا من النصوص الشرعية البينة وإلى جانب ذلك قد أشرت إلى المئات بل الآلاف من النصوص وما ذلك بيسير.

وما أسلفنا لك من الأدلة قد تبين بوضوح أن جحود السعي والعمل في غاية من الحماقة إلتي هي من أخبث الأمراض، وأن الطعن في التدبير إنما هو طعن مباشر في القرآن الكريم والسنة المطهرة وجرأة فاضحة على الله عز وجل ورسوله ﷺ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد وجب على وليد أن يتوب إليالله عز وجل من قوله الذي قال وأن يبني عقيدته على مقتضيات القرآن الكريم والسنة المطهرة من جديد وإلا فليؤثر الضلالة وعواقبها الوخيمة على الهداية وثوابها الجزيل والعياذ بالله رب العالمين.

أما قوله الشنيع في تعلم اللغة العربية وتحصيل العلوم فإنه كلمة كفر صريحة لو لم يحتمل التأويل إذ القائل ربما أراد الطعن في أر باب الدنيا الذين يريدون جمع الحطام بتعلم العلوم ولا شك أن هؤلاء وأمثالهم يستحقون الطعن والذم فلولا هذا التأويل لكان وليد مهينا للعلوم الدينية بقوله المذكور في الاستفتاء، وتحقير العلوم الدينية كفر كما هو واضح أما تكفير وليد خالداً لاستحسانه التدبير مع الإيمان بالقضاء والقدر فإنه أمر شديد يجب الحذر منه ولا يخفى أن الأيمان بالقضاء والقدر واستحسان التدبير هو العقيدة الحقة الصحيحة وما بعد الحق إلا الضلال وتكفير المسلم ليس أمرًا يستهان به فقد ورد في الأحاديث الصحيحة.

ـ ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩ ـ إذا قال الرجل لأخيه «يا كافر» فقد باء بها أحدهم.

كما أخرجه الأئمة مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمر والبخاري عن أبي هريرة وأحمد والشيخان عن أبي ذر وابن حبان بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم بأسانيد عديدة وألفاظ مباينة ومعاني متقاربة وهذا هو مذهب أهل السنة المحقق المنقح في هذا الباب ومع ذلك يجب علينا الاحتياط والحذر من تكفير المسلم والتكفير لأجل هذا القول ممنوع

وغير مناسب لأن الأحاديث السالفة تحتمل احتمالات عديدة وقد عمل بظاهر هذه الأحاديث مئات من الأئمة كالإمام أبى بكر والأعمش ومعظم فقهاء بلخ وغيرهم ـ رحمهم الله تعالى أجمعين ـ حيث قد كفروا من كفر مسلما كما فصلنا كل ذلك فى رسالتنا «النهى الأكيد عن الصلاة وراء عدى التقليد» ولكن يجب على وليد أن يأتى بكلمة الإسلام من جديد ويجدد النكاح إن كان صاحب زوجة.

ففى «الدر المختار» عن شرح الوهبانية للعلامة حسن الشرنبلالى ما يكون كفراً اتفاقًا يبطل العمل والنكاح وأولاده أولاد زنا وما فيه خلاف يؤمر بالاستغفار والتوبة وتجديد النكاح.

ويجب على وليد أن يلعن عن التوبة وتجديد النكاح كما نشر هذه الكلمات الشنيعة فإن رسول الله ﷺ قد قال «إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية» رواه الإمام أحمد فى كتاب الزهد والطبرانى فى المعجم الكبير عن معاذ بن جبل رضى الله عنه بسند حسن.

والله أعلم

***

القمع المبين لآمال المكذبين

١٣٢٩هـ

تأليف

مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

١٢٧٢هـ - ١٣٤٠م

ترجمه إلى العربية

غلام محمد بث

قسم التفسير

كلية أصول الدين

جامعة الأزهر الشريف

القاهرة. مصر



إهداء

إلى روح الإمام الرباني المجاهد الزاهد،
الطبيب الروحاني والحكيم الرباني مير السيد
علي الهمداني، رحمه الله تعالى الذي هجر
الوطن والأهل لتبليغ الإسلام، ونشر الأخلاق النبوية
والسلوك المحمدي صلى الله عليه وسلم في بلاد
الهند، ووقف حياته لإحياء القلوب بالإيمان والأخلاق رغبة
في رضى المولى عز وجل ورضى رسوله الكريم صلى
الله عليه وسلم.

فأحسن الله جزاءه وأجزل مثوبته، وأكرم نزله عنده

غلام محمد بت



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا وشفيعنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

أما بعد، .

فما أسعد اللحظات فى حياتى حين تعرفت على هذه الشخصية الموسوعية رفيعة المقام، أعنى مولانا الإمام الشيخ أحمد رضا خان القادرى الحنفى، إمام الصوفية فى الهند، الذى أخرج المئات من الكتب. وما أسعدنى حين أقدم هذه الشخصية الفذة وأفكاره مترجمًا إلى العربية إلى سادة العرب الناطقين بالضاد بطريق مؤلف قيم له فى مجال العقيدة الصحيحة من عقائد الإسلام، وهو كتاب ممتع يسمى «القمع المبين لآمال المكذبين» تصدى فيه المؤلف العلامة للرد على تأويلات خاطئة للذين يفترون على الله الكذب ويرون فى ظنهم الباطل أن الله يستطيع أن يكذب لكنه لا يكذب كما أن عنوان الكتاب يشير إلى مضمونه.

وكان المؤلف المفضال يحرص أشد الحرص على حفاظ العقيدة الإسلامية والشعائر الدينية والدفاع عن أهل السنة والجماعة، لذلك نراه تعرض لكل مسألة عقدية هامة التى أراد بها بعض الضلال التحريف أو التأويل أو التخصيص واستئصال الفتن التى انتشرت فى شبه القارة الهندية فى أيام حياته، كفتنة منكرى ختم النبوة وغير ذلك وكان أسلوبه فى إثبات الحق وإبطال الباطل وإقامة الحجة ودحض الشبهة رائع وكان له باع طويل فى العقيدة والكلام، وإبداع فى الاستدلال.

ويملأ قلبى سرورًا، وأنا أحمد الله تعالى على أنه وفقنى على هذا العمل الذى تم أثناء قيامى بمصر وأنا دارس بالأزهر الشريف إذ له فضل عظيم.

وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

غلام محمد بت

بسم الله الرحمن الرحيم

الفتوى:

استفسر محمد صادق على خان من محافظة «أكبر آباد» الهند، سنة ١٣٢٩هـ قائلا:

ما هو رأى العلماء الكرام فى رجل يقول: «قلت الكذب نقص والنقص عليه تعالى محال فلا يكون من الممكنات.. إلخ. قوله والنقص عليه.. إلخ. لا يخفى أنه موقوف على كونه ممنعًا بالذات، ولا نسلم ذلك إذ لو كان ممتنعًا لما وقع الكذب من أحد فهو ممتنع بواسطة أنه مناف لكماله تعالى فيكون ممتنعًا بالغير، والامتناع بالغير لا ينافى الإمكان الذاتى».

(حاشية عبد الحكيم السيالكوتى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإجابة:

الحمد لله الواحد الواجب الصدق، المستحيل الكذب، المحال عليه بذاته كل نقص وشين، فمن تقول عليه بإمكان كذبه وتطرق إليه بخلف وعيده فقد استوجب لعنة الله عليه في الدارين ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾[1] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾[2]«ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا»[3] ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾[4] «إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم»[5]، «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»[6].

«هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»[7]، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله وصبحه وبارك وكرم كلما ذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكره الغافلون، والحمد لله رب العالمين.

نعوذ بالله عز وجل من غضبه، ثم نعوذ بحبيبه الأكرم الذى عمت رحمته العالمين جميعًا. إن من الأمثال السائرة في اللغة الأردية «إذا أراد الله أن ينتزع إيمان قوم سلب عقولهم قبله لأن العقل السليم لا يقبل الباطل بعون الله الكريم، ولو أراد الشيطان في بعض الأحيان أن يخدعه سرعان ما يتنبه لخداعه ويشعر بمكائده

---

(١) سورة آل عمران: ٩٥.

(٢) النساء:١٢٢.

(٣) الإسراء : ٧٢.

(٤) طه: ٦١.

(٥) النحل: ١١٦, ١١٧.

(٦) هود ١٨.

(٧) التوبة : ٣٣.

كما أخبر الله عز وجل بذلك فى هذه الآية الكريمة «تذكروا فإذا هم مبصرون»[1] أما إذا انعدم العقل (نعنى بالعقل هنا الوعى الدينى والشعور الإسلامى لا المهارات الفائقة فى أمور الدنيا والعلوم العصرية) صار الإنسان صورة حية ومصداقًا كاملا لهذه الاية الكريمة «لا يعقلون شيئا ولا يهتدون»[2] وأصبح لعبة فى أيدى الشياطين وبذلك لا يبقى الإنسان إنسانا إلا صورة وشكلا، أما فى الباطن فهو بمثابة الحمار الذى ضرب الله به مثلا فى القرآن الكريم إذ يقول «كمثل الحمار يحمل أسفارًا»[3] «كأنهم حمر مستنفرة» [4]فمن كان متصفًا بهذه الصفات الشنيعة وطالع كتابا فلا شك أنه لا يطالعه إلا لإشباع أغراضه الفاسدة، وتحقيق مصالحه الشخصية مثله كمثل الخنزير والتنزه فى الحديقة، حيث تفوح رائحة الزهور وتنفتح البراعيم وتلاعب أيدى النسائم بأوراق الأشجار وترفرف الأرائك وتفوض الفوارات فيضًا وتصدح البلابل صدحًا وتغنى الطيور فى المتنزهة، أما الخنزير فلا شأن له فى المتعة والسرور بل همه ترقب النجاسة فيها ليبلعها. هذه هى حال الضال عندما يطالع الكتاب الذى يحتوى على آلاف من الأبحاث المفيدة والمنافع القيمة لا يلتفت إليها، بل بدأ يبحث عن موضع الخطأ فيه فإن عثر عليه تمسك به وإن كان الخطأ فى حد ذاته لا يخدم مصالحه فى الواقع. وبهذه الميزة قد فاق على الخنزير الذى من دأبه أكل النجاسة التى تصلح لأكله، أما المطالع لأغراض فاسدة فلا يميز بين ما يصلح لأهدافه من الخطأ وما لا يصلح لها.

انظر إلى هذا الجاهل كيف غفل عن حقيقة إيمانية واضحة بأن الأنبياء عليهم الصلوات والثناء هم المعصومون ولا يشاركهم فى هذا الوصف أحد من البشر.

---

(١) الأعراف ٢٠١.

(٢) البقرة ١٧٠.

(٣) الجمعة ٥.

(٤) المدثر : ٥٠.

ومن الطبيعي حدوث أخطاء ووقوع زلات من غير معصوم، ومن هنا اشتهرت تلك الجملة الرائعة التي كانت تتردد على ألسنة السلف الصالحين وأئمة الدين الحنيف وأهل الحق مؤكدة لتلك الحقيقة البينة حيث قالوا: «كل مأخوذ من قوله ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ »وبذلك كلما عثروا على أمر قد كان على خلاف ما كان عليه أهل الحق والجمهور تركوه على غارب صاحبه واعتقدوا ما كان عليه أهل السنة والجماعة؛ لأن الجماعة قد وردت في فضلها آثار كثيرة ومنها «يد الله على الجماعة». «اتبعوا السواد الأعظم» ولم يبالوا أدنى مبالاة بالطرائف المنطقية واللطائف العقلية التي اخترعها مدمنوا المنطق والفلسفة وما صاروا وراءها خبط عشواء؛ لأن الاتباع بغير علم والتقليد بغير فهم هو دأب العمي الملاعين أو الشياطين المتمردين، يقول الله فيهم ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(١) تتميز الفرق الضالة في هذا الوصف بصفة عامة وتتميز الفرقة الديوبندية في هذا الشأن بصفة خاصة وإنما حصلت لهم هذه الميزة وهذا الوسام عقابا لهم بما نسبوا الكذب إلى كلام الله تعالى. أما فرقة إسماعيل الدهلوي لها الأولوية والسبق في نسبة الكذب إلى الله عز وجل حيث بدأ هذه المأساة العقدية إسماعيل الدهلوي في مكتوبه «يكروزى» وكذلك الديابنة هم منغمسون في هذا المعتقد حيث زينه وزخرفه مرشدهم «جنجوهي» في كتابه «البراهين القاطعة» ومما يبعث على الغرابة هو تقليد هذه الفرقة لجنجوهي عميانا حيث قد فاقت عمائمهم على خبط عمي القلوب جميعا ولو كانوا على شيء من البصيرة ما تبعوه عميانا، ليتهم عرفوا!

إن الكذب الذي يقول عنه المولوي السيالكوتي بأنه ممكن بالذات بل ويصفه بأنه واقع. هو الكذب المطلق أيا كان قائله سواء كان هذا الكذب من وحشي أو جبلي

---

(١) الأعراف ١٤٦.

أو دهلوى أو جنجوهي فلا بحث لنا فى إمكانه وحدوثه ولا شك فى إمكان هذا الكذب المطلق بل ولا ريب فى وقوعه بعدد الملايين.

انظر إلى عبارته حيث يقول: لو كان ممتنعًا لما وقع الكذب من أحد، وتوضيحه بهذا أن هذا الكذب المطلق لو كان فى حد ذاته كاجتماع النقيضين وارتفاع النقيضين لما استطاع أحد أن يكذب ولكن الناس يكذبون فقد ثبت بأن الكذب ليس بمحال فى حد ذاته، أما إذا نسبته إلى الله عز وجل فهو محال بلا ريب؛ لأن ذات الله تقتضى جميع الكمالات وتنافى جميع النقائص، فالكذب محال عليه بالذات. ولا شك أن هذه الاستحالة ناشئة من قبل ذات الله عز وجل التى تنافى كل عيب. أما الكذب المطلق الذى هو الكلى العام الشامل لكل كذب، وكذب كل شخص فباستحالة فرد منه قد عرض نوع من الاستحالة للمطلق الكلى، وذلك لأن حكم الفرد إنما هو من حيث طبيعته المطلقة. ولا تعتبر هذه الاستحالة ذاتية فى الكذب المطلق لأن هذه الاستحالة لم تنشأ من ذات المطلق وإنما هى ناشئة من الإسناد إلى ذات الله عز وجل، ومثله كاجتماع النقيضين سواء بسواء؛ لأن الاجتماع المطلق بين شيئين لا يستحيل فى حد ذاته إذ لو كان مستحيلا فى حذ ذاته، ما اجتمع شيئان أبدًا، أجل إن اجتماع النقيضين محال بالذات بلا ريب حيث إن ذات النقيضين تتنافى مع الاجتماع.أما الاجتماع المطلق الذى يشمل الاجتماع بين شيئين بصفة عامة والذى قد أصبح محالا فى هذه القضية المخصوصة،فهذه الاستحالة لا تعد ذاتية له بل هى ناشئة بخصوص ذات النقيضين،فمطلق الاجتماع الذى هو عبارة عن الحقيقة المطلقة لا شك ممكن بذاته، بل واقع فى ملاين من الأماكن لن يكون بسببه اجتماع النقيضين ممكنا،لأنه محال بالذات قطعاً،وكذلك المطلق الكذب الذى هو عبارة عن الطبيعة المرسلة ممكن بالذات بلا ريب بل وموجود فى آلاف من الأماكن ولن يكون بسببه كذب الله تعالى ممكنا، والعياذ بالله،لأنه محال بالذات قطعاً.

وبهذا قد اتضح فحوى إيراد المولوى السيالكوتى وكذلك اتضح الجواب وضوحا تاما بأن الكلام هنا أراد فى الكذب الخاص لا فى طبيعة الكذب مطلقا،ولا يستلزم بإمكان الكلى إمكان جميع أفراده.لقد بدرت هنا من السيالكوتى هفوة عقلية بأنه لم يفرق في محل النزاع أن النقاش إنما كان في إمكان الفرد هنا غير أن السيالكوتي قد تطرق إلى إمكان الطبيعة.

وأما الديابنة فقد تمردوا فى كفرهم واستدلوا به على إمكان كذب الله تعالى(والعياذ بالله)وبذلك حاولوا بأن يرموا بكفرياتهم رأسه وينسبوا كفرهم إليه.فليجب الديابنة على حذر حيث نتساءل هل عبارة السيالكوتى هذه ما فهمتم منها هو حق عندكم أم باطل؟.وان قلتم هو باطل فلماذا تحيدون عن الحق متجاهلين وتضلون المسلمين الغافلين.وان قلتم هو حق فقد عدتم بالكفر على أنفسكم وأقررتم بضلالكم بألسنتكم،بل أصبحتم أضل من المشركين وقد عبدتم معبودا من صنعكم وانحرفتم عن الله عز وجل.ولو أبيتم فها نحن نثبت لكم بالدلائل أن العبارة التى استدللتم بها على إمكان كذب الله.فإن نفس العبارة على نفس المنهج تصلح للاستدلال على إثبات شريك الله وإمكانه،بأنه لو كان وجود الشريك محالا لما كان أحد شريكا لأخر،فيكون شريك الله محالا،بأنه ينافى كماله تعالى.معناه هو ممتنع بالغير والامتناع بالغير لا يتنافى مع إمكان ذاتى،وكذلك فى ضوء هذا التقرير يمكن موته وفناءه بأن تقولوا:لو كان الموت محالا لما مات أحد،فموت الله ينافى كماله وبذلك هو مستحيل بالغير،ومن هنا يكون موته وفناءه ممكنا بالذات،فلم يبق واجب الوجود ومن لم يكن واجب الوجود لا يكون الله ،بل يكون شيا من صنعكم (ألا لعنة الله على الظالمين)[1].

وكان فى هذا القدر من الرد كفاية لشرح هذه العبارة ونفض الغبار عن وجهها غير أن الفقير يود أن يوصل هذا النقاش إلى أعلى درجة من الكمال والإتمام بعون

---

(١) هود : ١٨.

الله القدير ويكشف وجه المكذبين كمثل (جنجوهى) و(الديابنة) فيما أرادوا من مخادعة المسلمين بعبارتى المسائره وشرح المواقف كما أشن عليه غارة روحانية فنقول (وبالله التوفيق): إن الاستناد بهذه العبارات من المسائره وشرح المواقف أضعف بكثير من الاستشهاد، غير أن المكذبين لله عز وجل إنما قصارى هدفهم وشغلهم الشاغل خداع الجماهير السذج من المسلمين وتحقيق مشابهتهم باليهود، نقول تحذيرا لهم ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾[1] فأقول وبالله التوفيق:

أيها المسلمون الكرام:- إنما العقائد تؤخذ وتتلقى عن سيد المرسلين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعن الصحابة وعن التابعين وعن السلف الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين، وقد صنفت المتون فى كتب العقائد لبيان هذه العقائد والمسلمون بصفاء طويتهم كانوا يؤمنون بها بغير تردد وتعليل يذكر، أما عندما كثر الضالون وبدءوا ينشرون عقائدهم الباطلة مستدلين عليها نقلا وعقلا ليخدعوا الجماهير المسلمين السذج. فمن هنا شعر علماء أهل السنة والجماعة بالحاجة الملحة إلى الرد على أدلة الضالين الباطلة، واقامة الدلائل الدامغة على عقائد هم الحقه، ومن هنا وضع حجر الأساس لكلام المتأخرين وانفتحت بوابة الاستدلالات والنقاش والمناظرات على مصراعيها حتى شعر المتكلمون بالحاجة إلى الفحص والنقد فى دلائلهم وردودهم أيضا، ومما لا شك فيه بأن الناس تختلف أذهانهم ثم أفكارهم، والباحث لا يستبعد عنه الإصابة والخطأ فى بحثه واستنباطه وهى غريزة لا تنفك عنه، قد يقيم أحد الباحثين دليلا على صحة مذهبه أو يرد على لقد وجه إليه ويأتى الآخر ناقدا على هذا الدليل ويقول أن هذا الدليل غير قوى لإثبات المدعى، فإن للخصم أن يرد فيه بكذا. وأثر هذا النقاش لا يتجاوز دليله والرد عليه وذلك إذا كان صحيحا فضلا عن أن يكون قصور فى هذا الدليل والرد عليه، كما

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

يعترف به الباحث نفسه،أو ربما اخطأ الباحث فى النظر والتأمل مع أن الدليل والرد عليه كانا سالمين،ولا يعنى هذا بأن المذهب المحقق هو باطل أو ضلالة الخصم حق(معاذ الله)والمعروف عند كل من له أدنى مسكة من العقل بأن القضية الأصلية لا يمكن إبطالها بإفساد دليل قام به أحد على هذه القضية أو بإفساد رد شخص على دليل هذه القضية وبالتالى لا يتغير هذا الباحث عقيدته خارجا عن مذهب أهل السنة والجماعة ظنا منه بأنه باطل.هذا الأمر معتاد عند جميع أهل السنة وغيرهم،مع كل ذلك أن فى الأزمنة القريبة بخير القرون كان الاعتدال والوسطية فى هذا النقاش والجدل قائمين أما إذا وقع فن الكلام في أيدي فلاسفة المتأخرين فاشتد الجدل في كل قضية بوجه أو بغير وجه وما كان الغرض وراء هذا إلا إبداع الذكاء في النفى والإثبات والدّفع والجذب والمنع والنقد وكان يطمع صاحب الجدل أن يبرز مؤهلاته العقلية فحسب،وما كان غرضه الرجوع عن مذهبه وإبطال عقائده ألبتة حاشا لله ثم حاشا لله ألف مرة.ومن المعروف عند أصحاب العدل أن ما صنف الشارحون والمحشيون من المتأخرين لم يكونوا يعتقدون به بأنفسهم فضلا عن أن يكون ذلك ممثلا عن عقيدة أهل السنة والجماعة، إنما العقائد ما وضعت فى المتون والمسائل دون الشروح والحواشى الفرعية، أما ما كتبوا فى الحواشى إن كان يوافق المتن فهو حق وإن كان يجافيه فإنما هو باب المناقشات الذهنية والرياضات العقلية والمنافسات القلميه، وقد اعترفوا بذلك بلفظ صريح بأنفسهم، يقولون بأنهم لا يرعون فيها قواعد أهل السنة والجماعة و يفوضون الأمر إلى معرفة القارى،حيث إنه يعرف عقائد الحق فيراعيها بنفسه هذا إذ دعت الضرورة إليها.ففى المواقف أنت تعرف مذاهب أهل الحق فإنما لا نتعرض لأمثاله للاعتماد على معرفتك بها فى مواضعها وفي شرحه فعليك مرعاية قواعد أهل الحق في جميع المباحث وإن لم نفرح بها وفى شرح المقاصد كثيرا ما تورد الآراء الباطلة للفلاسفة من غير تعرض لبيان البطلان إلا فيما يحتاج إلى زيادة بيان.

وجـاء مثل ذلك فى حـاشيـة (حـسن جلبى على السـيد)أن عـقـائد المحـققـين المتكلمين هى ما اثبـتوها فى المتون وصرحوا بها مـرارا وتكرارا فى مختلف الأوان دون ما تطرقوا إلى ذيول عفوية.

أما الكلاميـون الذين أصطبغوا بصبغـة الفلسفة على وجه الخصوص وخاضوا فى الجدل وبالغوا فيه ولـم يميـزوا بين الأغوار والأنجاد ولا الجبال والوديان ولا بين ما يجوز فيـه البحث وما لا يجوز،وقد تجدهم يتفـوهون فى المناقشات بما يلزمنا أن نعوذ بالله العظيـم منه.ففى شرح الفقه الأكبـر يقول الإمام الشافعى رحمة الله عليه لقد اطلعت من أهل الكلام على شىء فما ظننت مسلـما يقوله أن هؤلاء المحققين قد اطمئنوا إلى أن الـبحث ليس مهيمنا على المذاهب،و عـقائدنا معروفـة ومعلومة وما يرد فى الجـدل خلافها فأن القـارئ يدركها بنفسـه،وقد نبه على ذلك كـثير من أكابرهم غيـر أن المضل المغوى فلا دواء له حيث أن شغلهم الشـاغل تتبع مثل هذه الفرص لكى يشوش على الناس عقائدهم، فيقع العامى فى التردد لأنه لا معرفة له بقواعـد أهل الحق ليراعيهـا.هذه الأمور التى جعلت هذا النوع من كلام المتـأخرين مهـانا ومحتـقرا عند أئمـة الدين حتى قال الأمـام أبو يوسـف رحمة الـله عليه (من طلب العلم بالكلام تزنـدق) وقال الفـقهـاء الكرام لاحظ للمـتكلمين من المال إذا أوصى به للعلماء ولا تعد كتب الكلام من كتب العلم فقد نقل فى الفتاوى الهندية عن المحيط:لا يدخل فى هذه الوصية المتكلمون.وفـيه كذلك عن الإمام أبى القاسم الصفا رحمة الله تعالى عليه كتب الكلام ليست كتب العلم.

ونقل فى منح الروض الأزهر عن الفتوى الظهرية أوصى لعلماء بلده لا يدخل المتكلمون ولو أوصى أن يوقف من كـتبه كتب العلم أفـتى السلف أنه يباع ما فـيها من كـتب الكلام وفى الطريقـة المحمـدية عن التاتـارخانيـة عن الإمام الحـافظ أبى الليث السمرقندى:من اشتغل بالكلام محى اسمه من العلمـاء.وفى الحديقة الندية فلا يقال له عالم.ونظائر هذا فى نظر الفقير كثيرة ووافرة.

وفى هذه العجالة السريعة نعرض بعض الأمثلة من هذه الكتب الثلاثة المذكورة التى تمسك بأبحاثها الزائدة والفروع العفوية مكذبو الله عز وجل الذين تركوا القران الكريم والنصوص الصريحة التى زينت بها متون كتب العقائد وراء ظهورهم،وكذلك لم يبالوا بإجماع السلف والخلف، فأنهم قد تمسكوا بعبارتى المسائرة وشرح المواقف، وهى بضاعة الديابنة وجل اعتمادهم عليهما،والعبارة الثالثة من حاشية السيالكوتى التى مرت بك فى السؤال وما بعدها، فلا شىء فى أيدى هؤلاء المكذبين فهم صفر اليد(ولله الحمد) وبعد كل هذه لم تبق لديهم إلا وسوسة إبليس المردودة، وتنطبق على هؤلاء هذه الآية﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾[1].

المثال الأول:- يقول المولوى عبد الحكيم السيالكوتى ناقلا عن منهية الخيالى أن تعلق علم الله عز وجل بالأمور غير المتناهية مفصلا ممنوع، لقد نقل الملا المذكور هذا الوهم الفاسد عن(منهية الخيالى)وصدقه حيث قال قوله فتأمل،نقل عنه وجه التأمل أن علمه تعالى الشامل إنما يشتمل ما لا يمتنع العلم به كما أن قدرته الشاملة إنما تشتمل ما لا يمتنع وجوده وإمكان تعلق العلم بالمراتب الغير المتناهية مفصلة ممنوع، انتهى.

فإن قيل يلزم الجهل على الله تعالى، قلت الجهل عدم العلم بما يصح تعلق العلم به كما أن العجز عدم تعلق القدرة بما يصح أن تتعلق به فتأمل. إلخ.. إنه قال: إن علمه.. ممنوع، ولو أنه أمعن النظر في هذا القول الذي هو بمثابة الوسوسة الباطلة من عدو مبين أعاذنا الله تعالى من شره وما في طياته من الآفات القاهرة لما لوث لسانه بهذا القول فأقول أولاً، يتسائلا لكلا المولويين أن يجيب لي إلى أى قدر من سلسلة العداء قد وقف علمه فى علم الله عز وجل،بحيث لا يعرف العدد القادم من هذا الحد؟.وكم من أيام الآخرة يعلمها الله ولا يعلم بعدها؟.وكم كمية

---

(١) المرسلات : ٣٧.

من نعيم الجنان وعذاب النيران فى علم الله ولا يعرف زيادته؟.هل يمكن أن تصدر مثل هذه الأقوال من مسلم عاقل؛حاشا وكلا طبعا،لا.فانظروا كيف صرح الإمام الشافعى رضى الله عنه بهذا،وقد صدق ما قال:فما ظننت مسلما يقوله غير أنه رضى الله عنه قال: اطلعت على شئ،ونحن نقول وقد اطلعنا على أشياء،إذ فسد الزمان وإلى الله المشتكى وعليه التكلان.

ثانيا:- وليحدد فى هذه السلسلة من الأعداد حدا يفرق بين سابقها ولاحقها،وليبين السبب لماذا حصل العلم إلى هذا الحد ولم يحصل إلى ما وراءه؟.واعلم أن الوجود الخارجى لا يشترط فى العلم، وإلا لزم الجهل عن الغد بله الآخرة،والعياذ بالله، بل لزم الجهل المطلق عن كل ما سواء الأزل،وبالتالى يستحيل الخلق،ومهما يكن من أمر فأن الوجود لا يشترط فى العلم فيتعلق العلم بالمعدوم،ولا فرق بين معدوم ومعدوم،فوقف العلم عند حد معين ترجيح بلا مرجح، وهذا بخلاف علوم العالم حيث إن المرجح الإرادة الإلاهية أعطى ما شاء من شاء﴿ لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[1].

ثالثا:أى حد إذا قررته،مثلا إذا تحدد الأيام والإيلام والإنعامات لا بد التجاوز من الحد،لأنها لا تقف عند حد.أما الأيام والإيلام والإنعامات التى تأتى بعد هذا الحد يعلمها الله أم لا؟.لو قلت لا،فيلزم الجهل،والعذر الذى اعتذرت به زاهق ومردود،لأنه قد أصبح معلوما للعباد الآن،مع هذا من يخلقهم؟، هو الخبير والشهيد فلا معنى لعدم العلم ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2]، وإن أجبت فى الإثبات،بأن علمه لم يكن من قبل فعلمه حادث إذا، هل تظن أن أهل السنة يعتقدون بهذا؟.بل يعتقدون بما قال الله عز وجل ﴿وكان الله بكل شيء عليما ﴾[3]والعقيدة هى ما كتب السيالكوتى بنفسه، فى شرح العقائد الجلالى

(١) البقرة : ٢٢٥.

(٢) الملك: ١٤.

(٣) الفتح: ٢٦.

المعلومات فى أنفسها غير متناهية لشمولها الموجودات والمعدومات.وفى الشرح اعلم أن المتكلمين ينفون الوجود الذهنى ويثبتون علم الله تعالى بالحوادث الغير متناهية، بل تجد فى حاشية السيالكوتى على الخيالى نفسه يقول: هذه التعلقات قديمة غير متناهية بالفعل ضرورة عدم تناهى متعلقاتها، أعنى جميع ما يمكن أن يعلم من الأمور الكلية والجزئية الأزلية والمتجددة لشموله الممكن والممتنع والواجب.

والعقيدة هى ما قال فى المقاصد وشرحه علمه تعالى لا يتناهى ومحيط بما لا يتناهى كالأعداد والأشكال ونعيم الجنان وشامل لجميع الموجودات والمعدومات الممكنة وجميع الكليات والجزئيات سمعا وعقلا.

العقيدة ما صرح بها فى المواقف وشرحه:علمه تعالى يعم المفهومات كلها الممكنة والواجبة والممتنعة،والمخالف فى هذا الفصل فرق،الأولى من قال لا يعلم نفسه إلى أن قال ....الرابعة من قال لا يعقل غير المتناهى.

العقيدة ما صرح بها فى الحديقة الندية قائلا:المعلومات موجودة أو معدومة محالة أو ممكنة قديمة أو حادثة متناهية أو غير متناهية جزئية أو كلية، وبالجملة جميع ما يمكن أن يتعلق به العلم فهو معلوم لله تعالى.

والعقيدة هى ما بينته أنا الفقير إلى رب القدير فى (الدولة المكية بالمادة الغيبية)[1] الذى زينه علماء الحرمين الطيبين بتصديقاتهم الجليلة، قلت فيه:أن ربنا تبارك وتعالى يعلم ذاته الكريمة وصفاته الغير المتناهية والحوادث التى وجدت والتى توجد غير متناهية إلى أبد الآباد، والممكنات التى لم توجد ولن توجد بل

(١) كتاب قيم للمؤلف العلامة كتبه باللغة العربية أثناء قيامه في الحرمين الشريفين، وقد صرح فيه أن علم الله تعالى ذاتي ولا متناهي وليس له الفناء غير علم المصطفى ﷺ إنما من إعطاء الله تعالى ومتناهي، ويطرأ عليه الفناء والحدوث، ولقد حظى هذا الكتاب القبول العام من قبل علماء العرب والعجم، بل وقد قدم له كبار الشخصيات من علماء العرب ويصل عدد التعريفات عليه إلى تسع وخمسين وقد طبع هذا هذا الكتاب منقحًا ومحققًا حاليًا من باكستان (غلام محمد بت).

والمحالات بأسرها فليس شيء من المفاهيم خارجا عن علمه سبحانه وتعالى يعلمها جميعا تفصيلا تاما أزلا أبدا وذاته سبحانه وتعالى غير متناهية،وصفاته غير متناهية،وكل صفة منها غير متناهية،وسلاسل الأعداد غير متناهية،وكذا أيام الأبد وساعاته وأناته وكل نعيم الجنة وكل عذاب من عقوبات جهنم وأنفاس أهل الجنة والنار ولمحاتهم وحركاتهم وغير ذلك كلها غير متناه،والكل معلوم لله تعالى أزلا وأبدا بإحاطة تامة تفصيلية، ففي علمه سبحانه وتعالى سلاسل غير المتناهيات بمرات غير متناهية،بل له سبحانه وتعالى فى كل ذرة علوم لا تتناهى،لأن لكل ذرة مع كل ذرة كانت أو تكون أو يمكن أن تكون نسبة بالقرب والبعد،والجهة مختلفة فى الأزمنة باختلاف الأمكنة الواقعة والممكنة من أول يوم إلى ما لا أخر له، والكل معلوم له سبحانه و تعالى بالفعل،فعلمه عز جلاله غير متناه فى غير متناه فى غير متناه،كأنه مكعب غير المتناهى على اصطلاح الحساب وهذا جميعا واضح عند من له من الإسلام نصيب.

والعقيدة ما نقلته فى تعليقاتي المسمى بـ(الفيوض الملكية على الدولة المكية) حيث كتبت على قولي:(بل له سبحانه فى كل ذرة علوم لا تتناهى) الحمد لله هذا الذى كتبته من عندى إيمانا بربى ثم رأيت التصريح به فى التفسير الكبير إذ يقول تحت الآية الكريمة وكذلك نرى إبراهيم[1]، سمعت الشيخ الإمام الوالد عمر ضياء الدين رحمة الله تعالى،قال سمعت الشيخ أبا القاسم الأنصارى يقول سمعت إمام الحرمين يقول:معلومات الله تعالى غير متناهية ومعلوماته فى كل واحد من تلك المعاومات أيضا غير متناهية،وذلك لأن الجوهر الفرد يمكن وقوعه فى انحياز،لا نهاية لها على البدل ويمكن اتصافه بصفات لا نهاية لها على البدل الخ..

المثال الثاني:- أن العقيدة الأصلية فى المسائرة هى ما يعتقد بها أئمة أهل السنة والجماعة.أن الخالق الحقيقى لكل شيء هو الله لا غيره،والأفعال الاختيارية للعباد

---

(١) الأنعام : ٧٥.

كذلك بتمامهـا وكمالها مخلوقة لله تعالى، أما العبد فهو كاسب لها،ووضح هذا بالدلائل العقليـة والنقلية حيـث قال:الأصل الأول العلم بأنه تعالى لا خـالق سواه فهـو سبحـانه الخالق لكل حادث جـوهر أو عرض كحـركة كل شعـرة وكل قدرة وفعل اضطرارى كحركة المرتعش والنبض،أو اختيـارى كأفعال الحيوانات المقصود لهم أصله مـن النقل قـوله تعـالى﴿اللـه خلق كل شئ﴾[1] وقـوله تعـالى﴿والله خلقكم ومـا تعلمون﴾[2] ومن العقل أن قدرته تعالى صـالحة للكل لا قصور لها عن شيء منه فوجب إضافتها إليه بالخالق.مختصرا.

ولما كتب أهل الكلام المتأخـرون كلاما فى البحث والنقـاش على طريقة الجدل فى القـضاء والقـدر،مع أنه كان مـسلمـا لما خاض فى هذا البـحـر العمـيق أى مسـألة القـدر،لـيكشف عن السـر الإلـهى الذى منع رسـول الـله صلى الله عليـه وسلم الصديق وعمـر الفاروق رضى الله عنهما عن الخوض فـيه، ونتج عن هذا الخوض ما كان منه مرجوا بحيث كـان صاحبه اللؤلؤة ولكن وقعت يداه على الخزف الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع، فقالوا ما خـلاصته:أننا نخصص العزم عن النصوص العامة ثم عرضوا شبهات المعتزلة فى هذا الباب، وقال لقائل أن يقول:

فلنفى الجبر المحض وتصـحيح وجب التخصيص التكليف وجب التـخصيص، وهو لا يتـوقف على نسبـة جمـيع أفعـال العـباد إليـهم بالإيجاد لأى كـما فـعلت المعتزلة، بل يكفى أن يقال جميع ما يتوقف عليه أفعال الجوارح من الحركات وكذا التروك التى هى أفعال النفس من الميل والداعيـة والاختيار بخلق الله تعالى لا تأثير لقدرة العبد فيه،وإنما محل قدرته عزمه عقيب خلق الله تعالى،هذه الأمور فى باطنه عزما مصمما بلا تردد توجيهه توجيها صادقا للفعل طالبا إياه،فإذا أوجد العبد ذلك العزم خلق الله له الفعل فـيكون منسوبا إليه تعالى من حيث هو حـركة وإلى العبد

---

(١) الزمر : ٦٢.

(٢) الصافات : ٩٦.

ذلك من حيث هو زنا ونحوه إلى أن قال:وكفى فى التخصيص لتصحيح التكليف هذا الأمر الواحد،أعنى العزم المصمم وما سواه مما لا يحصى من الأفعال الجزئية والتروك كلها مخلوقة لله تعالى متأثره عن قدرته ابتداء بلا واسطة القدرة الحادثة المتاثرة عن قدرته تعالى والله سبحانه وتعالى اعلم.ولا ينخدع من قلت عنده مؤهلات الفهم ببيأن صاحب المسائرة بأنه مذهب الأحناف حاشاهم.بل مذهبهم هو الذى صرح به إمامهم أئمة الأنام سيدنا الإمام الأعظم رضى الله عنه فى (الفقه الأكبر) وفى وصاياه الشريفة: أن أفعال العباد جميعا على الإطلاق برمتها بغير تخصيص وبغير استثناء مخلوق لله تعالى.

وعبارة المسائرة تعترف بنفسها بأن هذا النقاش بما جاد به الطبع وليس مدهبا منقولا وفى الحقيقة لا يعتقد به صاحب المسائرة بنفسه، ليس البحث عقيدة لأن العقيدة لا يقلل بهذا الأسلوب بأن لقائل أن يقول.أن عقيدته هى التى بينها هنا في أصل المسألة،وكتبه فى آخر الكتاب فى قائمة عقائد أهل السنة والجماعة، وسنذكر هذه العبارات قريبا إن شاء الله فى الصفحات الآتية، أما هنا فأورد أن أبين هذا البحث مهمل لا طائل تحته،أما ما تمس به الحاجة إلى هذا البحث فستجده فى رسالة لعبد فقير تسمى(ثلج الصدر للأيمان بالقدر) وهذه الرسالة طبعت فى مجلة شهرية (التحفة الحنفية) فأنها كافية وشافية وبينت عدم جدوى هذا البحث فى تعليق المسائرة واليك ما هنا لك: قوله فإذا أوجد العبد ذلك العزم، أقول: معاذ الله أن نقول بأن العبد يخلق شيئا واحد ولا عشر عشير معشار شيء (ألا له الخلق والأمر تبرك الله رب العلمين) (أفمن يخلق كمن لا يخلق) (ما كان لهم الخيرة) (هل من خالق غير الله)وكون هذا قليلا بالنسبة إلى مقدورات الله تعالى لا يجدى نفعا فإنه كثير فى نفسه جدا فإن الإنسان لا يحصى ماله من العز مات فى يوم واحد فكيف فى عمره فكيف عزائم الأولين والآخرين من الإنس والجن والملك وغيرهم، فتخرج هذه الكثرة التى تفنى دون عد بعضها الأعمار عن مخلوقات

العزيز الغفار بلا واسطة، وتدخل فى مخلوقات العبيد فيكون جواب ﴿هل من خالق غير الله﴾[1] بالإيجاب،والعياذ بالله أى بلى هناك ألوف مؤلفة خالقون غير الله ولم تثبت المعتزلة أكثر من هذا إذ شنع عليهم أئمتنا من مشايخ ما وراء النهر و غيرهم رحمهم الله تعالى قائلين إنهم أقبح من المجوس حيث إن المجوس لم يقولوا إلا بخالقين اثنين فما أثبتوا إلا شريكا وحدا،و المعتزلة أثبتوا شركاء لا تحصى، وذلك أنها إنما قالت بخلق العبد فعله الاختيارى وكل فعل اختيارى لا بد له من عزم، فعدد العز مات والأفعال سواء، بل ربما تكون العزمات أكثر إذ قد يعزم العبد على فعل ثم يصرف عنه فلا يقع.قال سيدنا على كرم الله تعالى وجهه:عرفت ربى بفسخ العزائم، فإن كانت العزمات يشملها اسمًا واحدًا وهو العزم،فكذلك الأفعال ينتظمها اسم واحد وهو الفعل.فلا طائل تحت ما قدم الشارح ويأتى آنفا للمصنف أنه يكفى إسناد جزئى واحد إلى العبد وهو العزم،بل لو فرضنا أنه واحد بالشخص فالله تعالى متعال عن أن يشاركه أحد فى خلق شىء ولو جزئيا واحدا، أما اعتذار المصنف بأن البراهين أى الآيات الناصة باختصاص الخلق به تعالى عموميات تحتمل التخصيص،وقد أوجبه العقل إذ إرادة العموم فيها تستلزم الجبر المحض المستلزم لضياع التكليف وبطلان الأمر والنهى وتعلق القدرة بلا تأثير أى كما تقوله الأشاعرة لا يدفعه،لأن موجب الجبر ليس سوى أن لا تأثير لقدرة العبد فى إيجاد فعل إلخ.. ملخصًا، فاعترضه القارى فى(منح الروض)بأن ذلك العزم المصمم داخل تحت الحكم المعمم إلخ..أقول هذا من اعجب ما تسمع من الرد. فابن الهمام متى أنكر دخوله تحت العام، ولو أنكره فما كان يحوجه إلى التخصيص، بل النظر فيه بما ستسمع بتوفيق الله تعالى.

فأقول:أولا بل الآيات عمومات لا تحتمل التخصيص أئمة السنة على إجرائها على سنتها وأن الخلق مختص بالله تعالى لا حظ فيه للعبد فماذا ينفع كون اللفظ

---

(١) آل عمران: ٩٥.

فى ذاته محتملا للخصوص مع الإجماع على أن لا خصوص،ومن كان فى ريب مما قلنا فليتنا بنقل من الصحابة أو التابعين أو من بعدهم من أئمة السنة المتقدمين قبل حدوث هؤلاء المتأخرين يكون فيه أن للعبد أيضا قسطا من الخلق والإيجاد لن يأتى به حتى بوب القارظان ويمكن التكليف بإرجاع ما للقارئ إلى هذا أى الإجماع قائم على عدم التخصيص فذلك العزم أيضا غير مخرج من الحكم،وثانيا لا حاجة بنا إلى تخصيص النصوص وإثبات منصب إفاضة الوجود لمن لا وجود له فى حد ذاته بل تندفع الحاجة على وزان ما تزعمون اندفاعها هاهنا بإثبات تأثير القدرة الحادثة فى شيء دون الوجود كما هو مذهب الإمام أبى بكر ألبا قلانى أن للإنسان قدرة مؤثرة لكن لا فى الوجود بل فى حال زائدة على الوجود، وقد ارتضاه جمع من المحققين ذاهبين إلى أن تأثيرها فى القصد،والقصد حال لا موجود ولا معدوم أى هو من الأمور الاعتبارية التى وجودها بمناشيها والخلاف فى الحال لفظى كما فى(الفصول البدائع) وغيرها فليس إفاضتها خلقا فأنه إفاضة الوجود بل هو أحداث،والأحداث أهون من الخلق كما فى(المسلم والفواتح) وعليه تدور كلمات الإمام المحقق صدر الشريعة فى التوضيح،والعلامة الشمس الفنارى فى(الفصول البدائع) وتبعه العلامة قاسم تلميذ المحقق ابن الهمام فى تعليقاته على المسايرة وغيرهم رحمهم الله تعالى وهم مع تنوع منازعهم يرجعون إلى ذلك الحرف الواحد ولم أر أحد منهم يرضى بتخصيص العموميات اللهم إلا ما حكى عن الإمام أبى المعالى على الاضطراب فيه،فتاره يثبته وتارة ينفيه كما فى اليواقيت عن الشيخ أبى الطاهر القز وينى،بل الكلام فى ثبوته عنه كما سيأتى، والمنقول عن الحنفية فى كتب المتأخرين هو هذا القدر أعنى أن للقدرة الحادثة أثراً فى القصد أما أنه خلق وإيجاد،والنصوص مخصصة،فكلا لا يوجد هذا إلا للمحقق،وقد قال الأمام صدر الشريعة فى التوضيح بعد ما استفراغ وسعه فى التوضيح والتنقيح فالحاصل أن مشايخنا رحمهم الله تعالى ينفون عن قدرة

الإيجاد والتكوين فلا خالق ولا مكون إلا الله تعالى لكن يقولون أن للعبد قدرة ما على وجه لا يلزم منه وجود أمر حقيقى لم يكن بل إنما يختلف بقدرته النسب والإضافات فقط كتعين أحد المتساويين وترجيحه. اهـ. فهذا النص صريح في أن مذهب الة على خلاف ما بحث المحقق. ولولا نسجه الكلام على منوال الالتزام لقلت أنه أبداه نقضا على القدرية اللئام بأنه لو سلم أن الحاجة إلى تصحيح التكليف والجزاء، تؤدى إلى ذلك ولا بد فهى تندفع بشيء واحد وهو القصد، فلم قلتم فى جميع الأفعال بخالقة العبد ولعمرى هذا قاطع لهم لا يمكنهم خروج عنه، هذا وقال الإمام محمد السنوسى رحمه الله تعالى في(شرح أم البراهين) مقدمته في التوحيد، وبالجملة فليعلم أن الكائنات كلها يستحيل منها الاختراع لأثر ما، بل جميعها مخلوق لمولانا جل وعز، ومفتقر إليه أشد الافتقار ابتداء ودواما بلا واسطة فبهذا شهد البرهان العقلى ودل عليه الكتاب والسنة وبإجماع السلف الصالح قبل ظهور البدع.ولا تصغ بأذنيك لما ينقله بعض من أولع بنقل الغث والسمين على مذهب بعض أهل السنة مما يخالف ما ذكرناه لك فشد يدك على ما ذكرناه فهو الحق الذى لا شك فيه،لا يصح غيره واقطع تشوقك إلى سماع الباطل تعش سعيدا.وتمت إن شاء الله تعالى طيبا رشيدا والله المستعان.قال محشيه الفاضل محمد الدسوقى أشار بهذا إلى الثلاثة أقوال نقلت عن أهل السنة قول القاضى بتأثير قدرة العبد فى حال الفعل.وقول الأستاذ الاسفرائنى تؤثر فى اعتبار لأن الأستاذ يقول بالأحوال، وقول إمام الحرمين فى ذات الفعل على وفق مشيئة الرب، وهذه الأقوال غير صحيحة لمخالفتها لإجماع السلف الصالح، فإن قلت كيف يصح من هؤلاء الأئمة مخالفة الإجماع؟، قلت قال فى شرح الكبرى لا يصح نسبتها لهم،بل هى مكذوبة عنهم، ولئن صحت فأنما قالوا فى مناظرة مع المعتزلة جر إليها الجدل.ملخصا، أقول أما مخالفة ما نقل عن أبى المعالى للإجماع فظاهر وقد صح عنه خلافه كما ستسمع،أما قول إمام أهل السنة الباقلانى والأستاذ

الإمام أبي إسحاق على ما نقل هنا فليس فيه رائحة خـلاف ما استقر عليه الإجماع والاتفاق لما عـلمت أنه ليس فى شىء من الإيجاد و التكوين عـلى الإطلاق، وقال العلامة فـى شرح المقاصد المشهـور فيما بين الـقوم والمذكور فى كتبـهم أن مذهب أمـام الحرمـين أن فـعل العبد واقع بقـدرته وإرادته كمـا هو رأى الحكمـاء، وهذا خلاف ما صرح به الإمام فيما وقع إلينا من كتبه قال فى الإرشاد اتفق أئمة السلف قبـل ظهور البـدع والأهواء على أن هو الله ولا خالق الخـالق سـواه وأن الحوادث كلها حدثت بقدرة الله تعـالى من غير فرق بين ما يتعلق قـدرة العباد به وبين ما لا يتعلق، فـإن تعلق الصفة بشىء لا يسـتلزم تأثيرها فيـه كالعلم بالمعلوم والإرادة(١)

---

(١)أقـول إرادة فعل الـغيـر وإن لم تكن من الإرادة المبـحـوث عنهـا أعني صفـة من شـأنهـا تخـصيص أحـد المقدورين، كـما لا يخفى بل بمعنى المحـبة والهوى لكنه يريـد الاستيضـاح بصفات أخـر ألا ترى أنه ذكر العلم ثم التقـييد فـعل الغير ليكـون أوضح وأظهر وإلا فإرادة فـعل نفسـه أيضًـا غير مـؤثرة في الفعل إنما شأنها التخصيص والتأثير شأن القدرة كـما نص عليه في المسايرة غير أنه يتجه لهم الجواب بأن الكلام في القدرة، وليـس من شـأنها إلا التأثيـر عند تعلق الإرادة أما العلـم والإرادة فـبمعـزل عن التأثير وكـأنه لهذا أعدل عنه الإمام حجة الإسلام في «قواعد العـقائد» فاستند بنفس القدرة إذ يقول وليس من ضرورة تعلق القـدرة بالمقدور أن يـكون بالاختـراع فـقط إذ قدرة الله تعـالى متعـلقة في الأزل بالعـالم، ولم يحـصل الاختـراع بها إذ ذلك وعند الاختـراع تتعلق به نوعًـا آخر من من التعلق فـبطل أن القدرة تخـتص بإيجاد المقـدور. اهـ ، وأنـت تعلم أن القـدرة إنما تـؤثر على وفق الإرادة وإنما تعلـق الإرادة في الأزل أن توجـد الكائنات في أوقـاتها المخصـوصة فـيما لا يـزال فلا نسلم أن القدرة تـعلقت مع العراء عن الاختـراع بل أثرت واخترعت علي وفق الإرادة أما ههنا فتعلق بلا تأثيـر أصلا فلم تكن إلا اسمًا بلا مسمى ولفظًا بلا معنى وهذا حاصل ما ناقشه به في المسايرة أقـول ولا أرى هذه العقدة تنفك إلا بأحد أمرين الأول ليست القدرة ما تؤثر حـتما ولو مع الإرادة ولا محيـد عنه للمعتزلة أيضًا، ألا ترى أن الكفـرة بذلوا جهدهم في إيذاء النبي ﷺ وهموا بما لم ينالوا ورد الله الذين كفروا بغيظهم، فإنما القدرة صفة من شأنها التأثير وتؤثر مع الإرادة لولا مانع وقد قال في المسامرة شرح المسايرة: اعلم أن الأشعرية لا ينفون عن القدرة الحادثة إلا التأثير بالفعل لا بالقوة لأن القدرة الحادثة عندهم صفـة شأنها التأثيروالإيجاد لكن تخلف أثرها في أفعال العباد لمانع هو تعلق قدرة الله بإيجادها كما حـقق في شرح المقاصد وغيره اهـ. قلت وصرح به الآمدي ثم رأيت في شرح المقاصـد من بحث القدرة الحادثة من مقـصد الأعراض نسبة له ولم يأت بتـحقيق يزيد على ما مر. أقول وفيه حزازة والقلب لا يطمئن به ولا يسكن إليه وإلا لكان كل إنسان بل كل حيوان ولو أخس ما يكون وأضعـفه قادرًا علي الخلق والإيجاد وإن لم يـتفق له ذلك لعروض مانع وهو سـبقة الخلق الإلهي، ومـاذا تفـعل الأشـاعـرة الأقـدمون بدلـيلهم أن لو قـدر العـبـد علي فـعله لقـدر علي خلق ==

بفعل الغير فالقدرة الحادثة لا تؤثر في مقدورها أصلا واتفقت المعتزلة ومن تابعهم من أهل الزيغ على أن العباد موجدون لأفعالهم مخترعون لها بقدرتهم ثم المتقدمون منهم كانوا يمنعون من تسمية العبد خالقا لقرب عهدهم بإجماع السلف على أنه لا خالق إلا الله تعالى،واجترأ المتأخرون فسموا العبد خالقا على الحقيقة.هذا كلامه ثم أورد أدلة الأصحاب وأجاب عن شبهة المعتزلة و بالغ فى الرد عليهم وعلى الجبرية وأثبت للعبد كسبا وقدرة مقارنة للفعل غير مؤثرة فيه.فهذا أصرح نص على أن معتقده رحمه الله تعالى هو معتقد أهل السنة سواء بسواء فلم يبق أحد تسايره المسايرة.أقول ولكن العجب كل العجب من العلامة بحر العلوم اللكنوى عفا الله تعالى عنا وعنه جنح فى الفواتح إلى ما يلى فى المسايرة مع تصريحه فيها قبله بأسطر بما نصه(وما فهموا) أى المعتزلة بل هؤلاء الجهلة أيضا(أن الإمكان ليس من شأنه إفاضة الوجود)فإن من هو فى نفسه باطل الذات محتاج فى الواقعية إلى الغير، وكل[1] على مولاه كيف يقدر على إيجاد الأفعال من غير اختلال بالنظام الأجود، وهذا ظاهر لمن له أقل حدس من أصحاب العناية الإلهى[2](لكن من يجعل الله له نورا فما له من نور)[3] (وعند

==الأجسام والجواهر إذ لا مصحح سوى الحدوث والإمكان وهما مشتركان انتراهم قائلين إن كل إنسان وحيوان حتى الخناس والديدان يقدر على خلق السموات والأرض وإن لم يقع لهم لسبقه خلق الله تعالى وقد نص الأشعرية أن ليس للعبد من الفعل إلا المحلية فتدبر وانصف، والثاني أن الحادثة تحدث ولا تخلق وكفى به تأثيراً وهذا هو الذي حمل الحنفية والقاضي الأستاذ وجمعا من المحققين على القول بأن للمحادثة تأثيراً فيما دون الوجود، والحق أن العقل لا يستقل بإدراك تلك الحقائق فنؤمن بما أتى به القرآن وشهدت به الضرورة، وأدى إليه البرهان أن الفرق بين الإنسان والحجر، وبين حركتي البطش والارتعاش والصعود والهبوط والوثبة والسقوط بديهي، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى [النجم:٣٩] وأن لا خالق لشيء إلا العلي الأعلى وأن لا مشيئة للإنسان إلا بمشيئة الله تعالى ولا نزيد على هذا ولا نقتحم بحراً لا نقدر على سباحته (المؤلف رحمه الله).

(١) استعمله بمعنى المحتاج، وإنما هو بمعنى التقبيل والله متعال أن يكون أحد، كلا عليه (للمؤلف).

(٢) لعله من خطأ الناسخ والوجه الإلهية (للمؤلف.

(٣) النور: ٤٠.

أهل الحق) أصحاب العناية الذين هم أهل السنة الباذلون أنفسهم فى سبيل الله بالجهاد الأكبر(له قدرة كاسبة)فقط لا خالقة الخ،فكيف رضى مع هذا بأن جعل الممكن الباطل بالذات خالقا لعزائمه مع أن قول التأثير فى أمر اعتبارى كان بمرأى عينيه وقد كان بينه هو بنفسه على وجه كاف ولم يتعقبه،فإن كان مختارا ولا بد فكان اختيار ما عليه جمع من المحققين وليس فيه مخالفة نص ولا إجماع أولى وأحرى،ولكن الله يفعل ما يريد[1] هذا وتلميذ المحقق العلامة كمال بن أبى شريف وإن ساير هذا شيخه رحمها الله تعالى،لكنه أشار بعده إلى أن هذا خلاف ما عليه أهل السنة،حيث قال فى المسامرة عند قول المصنف قدمنا أن للمكلف اختيارا أو عزما يصمم ما نصه(اختيارا)على ما عليه أهل السنة (أو عزما)على ما اختاره المصنف.وتلميذه الآخر العلامة الدين بن قطلوبغا فى تعليقه على المسايرة لم يرض به أول الأمر وقال الطريق الذى سلكه المصنف أنه المرضى عنده الرفع للجبر،ولم يندفع يه سأنبه عليه ثم أورد طريقا اختاره العلامة الفنارى فى الفصول واقره،ومحصله هو التأثير فى الاعتبارى ولولا غرابة المقام لأوردته مع ما يريد عليه.أقول وبما ذكرنا ظهر أن الفرق بين ما سار في المسايرة وقضى به القاضي كالفرق بين الغرب والشرق فما قال في المسامرة إن حاصل كلام المصنف رحمه الله تعالى تعويل على مذهب القاضى الباقلانى وتبعه علي القاري في منح الروض الأزهر فقال ما أختاره هو قول الباقلاني من أهل السنة الخ..فهما لا وجه له نعم إنما وافقه فى لفظ وهو أنه يكون منسوبا إليه تعالى من حيث هو حركة وإلى العبد من حيث هو زنا ونحوه وقال القاضى وقدرة الله تعالى تتعلق بأصل الفعل وقدرة العبد بوصفه من كونه طاعة أو معصية فمتعلق تأثير القدرتين مختلف كما فى لطم اليتيم تأديبا وإيذاء فذات اللطم واقعة بقدرة الله تعالى وتأثيره،وكونه طاعة على الأول ومعصية على الثانى بقدره العبد وتأثيره المتعلق ذلك بعزمه المصمم.فإنما الاشتراك فى نسبة صفة الفعل إلى تأثير قدرة العبد وأين ما ادعى المحقق من خلقه عزمه.أقول ما ذكر من الصّفة أثر قدرة العبد حق بلا مرية لكن لا

---

(١) البقرة: ٢٥٣.

على الوجه الذى قرر المصنف بل الأمر أن المولى تعالى أجرى سنته بأن العبد إذا أراد فعلا يخلقه الله تعالى فيه ،فالإرادة بخلق الله تعالى والفعل بخلق الله تعالى وليس للعبد من الخلق شيء لكن كون الفعل إراديا يتوقف على إرادة العبد توقفا عقليا قطعيا إذ لو خلق الله فيه الفعل من دون أن يخلق فيه أراده له لكان كحركة الحجر بالتحريك فلم يكن إراديا، والفعل لا يكون طاعة ولا معصية إلا إذا كان إراديا فهذه الصفة للفعل لا تحصل إلا بإرادتنا ،أى لكونه مصحوباً بالإرادة خلق الله تعالى فينا ولو لا ذلك لم يكن طاعة ولا معصية قطعا، ثم أنى رأيت المحقق ذكر فى التحرير،أما الحنفية فالكسب صرف القدرة المخلوقة إلى القصد المصمم فأثرها فى القصد ويخلق سبحانه الفعل عنده بالعادة، فإن كان القصد حالا غير موجود ولا معدوم فليس بخلق وعليه جمع من المحققين وعلى نفيه فكذلك (أى ليس الكسب بخلق أيضا) على ما قيل(أى قول صدر الشريعة) الخلق يقع به المقدور لا في محل القدرة ويصح انفرادالقادر جاء المقدور والكسب يقع به فى محلها ولا يصح انفراده بإيجاده ولو بطلت هذه التفرقة (بين الخلق والكسب) على تعذره أى بطل (أى بطلانها) وجب تخصيص القصد المصمم من عموم الخلق بالعقل.باختصار مزيدا ما بين الهلالين من شرحه التقرير والتحبير لتلميذه المحقق ابن أمير الحاج رحمهما الله تعالى فقد أبان البون البين ما بحثه فى المسايرة وبين ما ذهب إليه إمام القاضى وظهرت بحمد الله تعالى منه على فائدة نفسية وهو أنى كنت كتبت على المسايرة قبل هذا بنحو:أربع سنين ما نصه:نرجو أن المصنف رحمه الله تعالى رجع عنه إذ لم يذكره فى فذلكة ما يعتقده إلا ما عليه أهل السنة كما سيأتى ونرجو أن المولى سبحانه وتعالى جعل هذه الزلة الواحدة وإن عظمت مغمورة فيما أولاه من بحار الحسنات الجميلة،ونسأل الله الثبات على الحق وهداية الصواب فى كل باب وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وسلم أبدا (أمين).

فبحمد الله تعالى قد حقق الله رجائى وظهر رجوع المحقق عن اختيار ما بحثه إذ علقه هنا على تعذر التفرقة بين الخلق والكسب، وصرح ببطلان التعذر فإذا بطل المبنى وجب تهدم البناء،ولله الحمد وتصنيف التحرير متأخر عن تأليف المسايرة كما لا يخفى على من طالعه وذلك قوله تعالى(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة والحمد لله رب العالمين،أما ما أورد الشيخ على الإمام أبى بكر ألبا قلانى كما نقله فى اليواقيت الإمام الشعرانى مقرا عليه أنه يقال له هذه الحال مقدورة لله تعالى أم لا؟على الثانى لا محالة تكون مقدوره للعبد وهو مذهب المعتزلة بعينه وعلى الأول لم يكن للعبد شىء ألبته وذلك هو مذهب الجبرية بعينه فلا فائدة للتمسك بالحال.باختصار أقول وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ولما يترأى ظاهرا أن هذا سؤال عام الورود ولا محيص عنه لشىء من الأقوال، فشأن من اثبت للقدرة الحادثة تأثيرا ما فى شىء من عين أو حال فيقال له كما قلتم فإن قال إن ذلك الشىء ليس مقدور الله تعالى فهو الاعتزال،أو قال مقدور له لم يبق للعبد شىء وهو الجبر،ومن لم يثبت كسادتنا الأشعرية فقد أفصح بالشق الأخير من الأول فيقال إذن لا شىء للعبد البتة فهو الجبر بعينه وذلك لأنه إنما يريد إنكم لجأتم إلى هذا نفيا للجبر فإذا اعترفتم أنه واقع بقدرة الله تعالى بقدرة العبد لاستحالة إجماع مؤثرين على أثر فقد انتفى الملجأ ولزم القرار على ما منه الفرار، فالمعنى هو الجبر بعينه عندكم، بل لما أقول يختار أنه مقدور الله تعالى بل ومراده أيضا لكن أراد أن يريد العبد فيكون فلا جبر ولا اعتزال وإلى منحى هذا ينحو ما فى المسايرة، غاية ما فيه أنه تعالى أقدره على بعض مقدورا ته تعالى،كما أنه أعلمنا بعض معلوماته سبحانه تفضلا إلخ، وبالجملة لا تنافى بين كونه مقدور الله تعالى ومقدور العبد بأقدار حتى يقال لم يكن للعبد شئ، وأيضا لا يلزم من كونها مقدورة للعبد الاعتزال،لأنهم يقولون بخالقية العبد، والخلق إفاضة الوجود والحال غير موجود ، هذا،وليعلم أنى لا أريد بالدفاع عن هذا القول أن أقول به إنما

أقول إنى لا أعلم ما يرده من نص أو إجماع وقد رأوا أن هنا ثلثة أشياء حالت بين عينين إرادة العبد وفعله وتعلقها بـه فإن لم يكن للعبد تدخل فى شىء من ذلك خرج من البين قطعا وهو الجبر حقا،كما الزم به الحنفية الأشعرية، بل قصد نصت الأشعرية، أنفسهم فى بحث عقلية الحسن والقبح أن فعل العبد اضطرارى غير اختيارى فوجب أن لا يوصف بحسن ولا قبح عقلاً، ونص الإمام أبو الحسن الأشعرى أن العبد محل الفعل فحسب،وصرح كبراء الأشاعرة كالإمام الفخر العلامة سعد فى آخرين أن المآل هو الجبر وأن العبد مجبور فى صورة مختار، وتبعهم القارى فى منح الروض فجعله الأنصاف، ومن المعلوم قطعاً وإجماعا وسمعاً أن ليس للعبد شىء من الإيجاد فإرادته كقوله ليست إلا خلق ربه تبارك وتعالى فلم يبق إلا التعلق المسمى بالقصد، فقالوا هذا ما أقدره عليه ربه وليس من الخلق فى شىء كما عرفت،فهذا نزاع سادتنا الحنفية فى هذا الباب،أما أنا فكما ذكرت فى الفيوض الملكية تعليقات كتابي الدولة المكية، لست ممن يخوض فى هذا، وإنما إيماني ولله الحمد ما ثبت بالقرآن وأجمع عليه الفريقان وشهدت به البداهة وأدى إليه البرهان أن لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين وسرت أسرد فيه الكلام إلى أن قلت فالتكليف حق والجزاء حق والحكم عدل والاعتراض كفر والاستبداد ضلال والتحجر جنون والجنون فنون ولا حجة لأحد على الله تعالى لما فعل ولله الحجة البالغة لا يسأل عما يفعل وهم يسائلون، فهذا إيماننا وإن سألنا عما وراءه قلنا لا ندرى ولا كلفنا به ولا نخوض بحراً لا نقدر على سباحته،نسأل الله الثبات على دين الحق والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً:الخلق لغة وعرفاً وشرعاً هو الإيجاد بالاختيار،قال تعالى(ألا يعلم من خلق) فأفاد أن العلم لازم للخلق وذلك هو الإيجاد بالقصد.فإن الموجب لا يجب أن يعلم الموجب من جهة كونه موجباً،وأن علم علمه من جهة أخرى، وأما ما نوزع فيه بأن الدلالة بالتتمة وهو اللطيف الخبير،فأقول كونه لطيفاً خبيراً كاف،فلو لم

يكف الخلقية لكان إقحامًا من خلق مستدركا على أنه قد تواتر من القراء الوقف على من خلق،فهى جملة مستقلة وتوقف لها على ما بعدها والحق أن الكل دليل مستقل،فلو كان قصدنا بخلقنا لكان بقصدنا،وكل أحد يعلم من وجدانه إنما يريد الفعل لا أنه يريد أن يريد ثم يريد.

ورابعاً:لا يخالف ملى حتى المعتزلي أن الإرادة الكلية فينا ليس بخلقنا بل خلق ربنا خالق القول والقدر، فلا يكون لنا إن كان إلا القصد الجزئى.أقول، وليست كلية الإرادة المخلوقة فى عبد أنها نوع تحته أفراد بل هى صفة شخصية قائمة بشخص، وإنما كليتها بمعنى على الإطلاق عن التعلقات، فكلما تعلقت بمقدور معين سميت جزئية، فما القصد الجزئى إلا خصوص تعلق تلك الصفة الشخصية بفعل شخصى، والتعلق أمر إضافى لا وجود له فى الأعيان،فإن أسند إلى العبد لم يكن فى شيء من الخلق ،فلم عدلتم عن قول الحنفية وملتم إلى تخصيص النصوص.

وخامسا [1]:هب أن القصد بالقصد فلابد من الانتهاء إلى قصد ليس بالقصد وإلا تسلسل فى الأعيان، لأنه وجودى عندكم،وإذا انتهى الأمر إلى الإيجاب انتفى الاختيار لزم القرار على ما كان منه الفرار أما قولهم الوجوب بالاختيار لا ينافي الاختيار بل يحققه،أقول:ليس هذا وجوبا بالاختيار بل اختيار بالوجوب أى لا يستطيع أن لا يختار وهو ينافى الاختيار بمعنى التمكن من الترك قطعاً فيعود المحذور وارداً على القائلين بالتأثير في الحال أيضاً، ولا محيص بما قالوا أن القصد اعتبارى فليتسلسل،وذلك لأنه فى المبدأ محال ولو فى الاعتبارات، أقول لأن سر

(١) أقول وهنا دليلان آخران يمكن له الجواب عنهما، فالسادس «وما تشائون إلا أن يشاء الله» فمشتنا ليست بمشتنا بل بمشيئة ربنا، والسابع ورد مرفوعًا وانعقد إجماع المسلمين على قوله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فلو لم يشأ مشيتنا لما كانت لكن كانت فقد شائها والجواب عنهما مشيتنا بمشتنا لمشيته أن تكون بمشيتنا ويخص الأول أن المعنى لا تشاءون شيئًا من أفعالكم إلا ما شاء الله أن يخلقه عند مشيتكم (للمؤلف).

تجويزه هو انقطاعه بانقطاع الاعتبار، وههنا حيث انقطع ما تحته لانعدام العلة فينعدم الفعل،ولا بان قصد القصد عين القصد ،فإن المحتاج كيف يكون عين المحتاج إليه، ولا بأنه عدمي فلا يحتاج إلى مؤثر فإن كل متجدد لا غناء له عن مؤثر ولو عدمياً كالعمى، ولا بأن اختيارالمختار لا يعلل كإيجاب الموجب، أقول، نعم لا يسأل لم خصص هذا لا ذاك ،كما حققته فى رسالتى (الإفهام المصحح للترجيح بدون مرجح) التى الفتها بعد ورود هذا الاستفتاء،أما نفس التخصيص فمتجدد وليس له عن المؤثر محيص.

فإن قال الكل لا نريد بالاختيارى إلا ما يقع بالاختيار أو عند الاختيار وإن لم يكن الاختيار بالاختيار، قلنا أن دفع قول الشعرى أن فعل العبد اضطرارى ولكن أين المحيص؟ من ثبوت الحجة للعبد فى المعاصى،فأنه يقول ما خلقت وإنما قصدت وما كان قصدى أيضًا باختيارى فما ذنبى؟،واعلم أن الكلام هنا ينجر إلى عويصة أخرى وأمر أدهى،لا تخل بأنامل الأفكار إلا بتوفيق العزيز الغفار، ولصعوية هذا سكت عنه مثل السيد الشريف فى موضعين من شرح المواقف، وألتزم مصيبته البحر فى الفواتح والعياذ بالله تعالى، وتتبعت كلمات المتكلمين والأصوليين من جميع مظان هذا البحث فاجتمعت لى منها ثمانية أجوبة لا غناء فى شيء منها، ثم المولى سبحانه وتعالى فتح بفضله وهداني للجواب الحق كما أوردت كل ذلك فى رسالتى(تحبير الحبر بقصم الجبر) التى الفتها بعد ورود هذا الاستفتاء قبل أن أنهى الجواب عنه فنكل هذا البحث إليها،ونفيض فيما كنا فيه فنقول لهم تبين أن ما زعمتم أن الحاجة تندفع به فما حملكم على تخصيص النصوص،وأنت تعلم أن هذا كما يكفى للرد على المحقق رحمه الله تعالى،كذلك لرد كل ما يدعى العبد خالقاً له من فعل أو عزم غير ذلك للخلاص من هذه الورطة الظلماء،فإن الكلام يجرى فى الكل ولا يزال يتسلسل إلا بالإنهاء إلى الإلجاء وهذا ما نقل فى شرح المقاصد وغيره عن المحققين أن المال هو الجبر فثبت

بالبرهان أن إسناد خلق شيء أما إلى العبد مع كونه مخالفا للقرآن العظيم والإجماع القديم والدين القويم لا يسمن ولا يغني من جوع، فوجب حمل كلام الله تعالى على عمومة،والإيمان بأن لا خالق إلا الله تعالى،ثم البداهة شاهدة بالفرق بين البشر والحجر، فلا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين ولا يلزم للعلم بأحقية شيء العلم بحقيقته كما بينته في (ثلج الصدر في الإيمان بالقدر)وهذا هو العلم الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،ومن رام فوقه فإنما يروم خرط اقتاد،أقول ومن الدليل القاطع على بطلان كل كلام أريد به حل هذه العقدة ما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم من نهيه الأمة حتى أجله الصحابه الكرام الذين كانوا أعقل وأعلم وأفهم من كل من بعدهم عن الخوض فيه.وقد أخرج الطبراني في الكبير عن ثوبان رضي الله تعالى عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اجتمع أربعون من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ينظرون في القدر والجبر فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهم، فنزل الروح الأمين جبريل عليه الصلاة والسلام فقال يا محمد اخرج على أمتك فقد أحدثوا فخرج صلى الله تعالى عليه وسلم ملتمعا لونه متوردة وجنتاه كأنما تفتأ بحب الرمان الحامض فنهضوا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حاسرين أذرعهم ترعد أكفهم وأذرعهم فقالوا تبنا إلى الله ورسوله فقال أولى لكم إن كدتم لتوجبون أتاني الروح الأمين فقال اخرج إلى أمتك يا محمد فقد أحدثت.

افترى أن هذا الغضب الشديد والنهي الأكيد كان لأن أبا بكر وعمر وسائر الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يكونوا أهلا لأن يعرفوا كلمة سهلة خفيفة أن العزم لكم والباقي لربكم أو غير ذلك مما يزعمه زاعم كلا بل هو دليل قاطع على أن الأمر سر لا تبلغه العقول ولا يحيط به البيان وأن لا خير للأمة في كشفه عليهم وإلا لما ضن الله به ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم،فالحق الناصع ما عليه أئمه السلف أن الأمر بين لا و لا، ولا مصدر لنا الآن فوق ذلك وما نحن من المتكلفين الحمد لله رب العالمين .

فـالجمـلة القول :أن هذا الـبحث يخـالف النصـوص و الإجمـاع والأشاعـرة والحنفـية والـوجدان والبـرهان.هل يعـتقـد به أهل السنة؟،أو هـل يأخذه إمـام ابن الهمام حاش لله،العقيدة هي مـا قال الله تعالى﴿هل من خالق غير الله﴾ [١]وقـال ﴿ألا له الخلق والأمـر﴾[٢]وقـال ﴿أفمن يخلق كـمن لا يخلق﴾[٣] وقـال: ﴿لا يخلقون شيئا وهم يخلقون﴾[٤].

العقيدة هي ما كتب الإمام ابن الهـمام بنفسه في مستهل هذا الأصل: أن الله لا خالق سواه.والعقيـدة هي ما صرح بها الإمام الممدوح بنفسه في آخـر كتابه المسائره حيث عرض قائمة لأصول عقائد أهل السنة ودعـا الله تعالى أن يثبته على العقيدة إلى أن يلقاه،إذ يقول :ولنختتم الكتاب بإيضـاح عقيدة أهل السنة والجماعة وهي : أنه تعـالى واحـد لا شريك له منفـرد بخلق الذوات وأفـعـالها (إلـى أن قال)عليـه الرحمة ذي الجـلال، والله سبحانه نسـأله من عظيم جوده وكرمه أن يتـوافانا على يقين ذلك مسلمـين أنه ذو الفضل العظيـم وهو حسبنـا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

العقيـدة هي ما صرح بها الإمام صدر الشـريعة في التوضيح كمـا مر بك خلال التحقيق .

والله تعالى أعلم بالصواب

***

---

(١) فاطر: ٣. (٢) الأعراف ٥٤.

(٣) النحل: ١٧. (٤) النحل:٢٠.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة







دار البيان

للطبع والنشر والتوزيع

٤٨٣٤٣٣٧ - ٤٨٢٢٤٨٧

